محمود مبروك

الحب والدم ... والنار

مجموعة قصص وطنية

مقدمة

كم ذا يكابد عاشق ويلاقي   في حب مصر كثيرة العشاق

إنها مصر .. نعشق عيونها، ونذوب في هواها، وتهون أراوحنا في سبيل علاها. ينشغل عنها البعض حينا، لكنها تنادي، فيهب الجميع ويلبون نداها .. كم بذلنا العرق وقدمنا الدم رخيصا ذوداًعن حماها ....

إني لأحمل في هواك صبابة   يامصر قد خرجت عن الأطواق

وجزء عزيز عليها وعلينا؛ سيناء مطمع كل غازٍ، ومدخل كل مستعمر، لكنها سيناء، أرض القمر، التي أضاءت بنور الأنبياء، وتشرفت بالوادي المقدس طوى.

عنها حكايات هوى جامح لا توقفه المخاطر، ولظى مستعر في القلوب لا تطفئة كل المياه التي في البحار والمحيطات .. وراية يتسلمها جيل بعد جيل من أبنائها؛ مرفوعة على مر الزمن. أليست مصر هي القائلة على لسان حافظ إبراهيم:

أنـا إن قدر الإله مماتي   لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدي

مـا رماني رام وراح سليما   مـن قديـم عناية الله جندي

كم بغت دولة عليَّ وجارت   ثم زالـت وتلك عقبي التعدي

حكايات عن أرض سيناء التي ارتوت على مدار سبعين عاما الماضية بدماء عشرات الألوف من أبناء مصر، ومازالت ترتوي، وستظل أرواحنا رهناً بندائها.

وحكاية عن بطولة جيش مصر في اليمن، حدودنا الجنوبية الشرقية دفاعا عن القومية العربية ومساندة للمقهورين من أبناء العروبة.

المؤلف

ساعة في سيناء(*)

كانت الشمس تودع سماء المنطقة، ونورها ينسحب تدريجياً لكي يحل محله ظلام رافقه ظلام أشد؛ في نفوس كل الضباط والجنود فيما بين جبلي الحلال، ولبنة في سيناء، حين ترددت معلومات؛ غير محددة وغير واضحة في مصدرها أو تفاصيلها عن الإنسحاب من مواقعهم. إلى أين؟ لا إجابة. متى؟ لا أحد يدري!!

بكى الرائد فيصل وانسابت على خديه دموع الرجال حين يقهرون، ويفتقدون الحيلة لدفع القهر. إصطحب النقيب نجاتي واتجها إلى قائد الكتيبة؛ العقيد حسام لمراجعة الأمر، ولم يكن القائد بأفضل منهما حالاً، ولا أكثر علماً، واكتفى بالتعبير عما تلقاه بأمر مختصر حزين:

- جهز الكتيبة يا فيصل .. والحملة حاتبعت لواري للسرايا والفصايل، يتحمل فيها الأفراد والأسلحة بس. وحانتحرك في اتجاه قناة السويس مع أول ضوء بُكره ..

حاول فيصل أن يستزيد عن طبيعة التحرك، أو هدفه، وهل هو مناورة أم انسحاب حقيقي، لكن القائد كرر رداً واحداً: ما اعرفش. وفي النهاية؛أمر فيصل بالتوقف عن الأسئلة التي لا يملك إجابة عنها، وألا يحمله ما لا طاقة له على حمله.

انصرف الرائد فيصل فأصدر أوامره إلى قادة السرايا ومجموعة القيادة، وانتحى جانباً جلس فيه على الأرض التي أقسم على الدفاع عنها والتمسك بسلاحه لا يتركه حتى يذوق الموت دونه، ومر شريط العمر أمامه مفصلاً، سريعاً، ولم يدر ما الذي جعله يتوقف عند الحوار الذي دار بينه وبين أحد مرافقيه في العمرة التي أداها منذ عامين حين جمعتهما الحافلة التي نقلتهما من مكة إلى جدة بعد انتهاء

(*)حازت القصة على جائزة إدارة الشئون المعنوية للقوات المسلحة.

المناسك، عندما أخبر رفيقه بأنه نسى بيجاما ومنشفة في غرفة الفندق، فابتسم رفيقه وبشره بأنه لابد عائد إلى مكة، أو هكذا يردد الناس عمن يفقد أو يترك شيئاً في الأراضي المقدسة.

خلع فيصل ساعة يده، ولفها في ورقة من جريدة، وحفر حفرة صغيرة بـ "جفير السونكي" فدفن فيها الساعة، وأهال عليها التراب .. ثم انتفض يشرف على أفراد الوحدة في تنفيذ التعليمات الغامضة التي ألقيت إليهم .. ومضت الليلة الحزينة حيث أسدلت مزيداً من الغموض على ما يجري من حوله، فلقد تحرك منذ أسبوعين إلى هذا الموقع كوثبة للتجهيز لهجوم لم يشك هو أو أحد من زملائه في نتيجته المظفرة.

وفي الصباح كان مشهد الانسحاب دامياً وحزيناً بل رآه مخزياً يسجل على الخامس من يونيو ١٩٦٧ أنه كان يوماً منحوساً وأنه لم يكن يعبر عن منطق مفهوم، كان يوماً ظالماً للعسكرية المصرية.

بعد أيام، كان – ومن نجا من أفراد وحدته ومن وحدات أخرى عديدة – غرب القناة جمعتهم معسكرات جمع الشاردين فتم تنظيمهم في وحدات صغرى وتخصصت لهم مهام في الدفاع، ومنع العدو من مواصلة التقدم إلى غرب القناة.

أيام، وتوقف القتال بقرار من مجلس الأمن، وعاد الرجال إلى وحداتهم الأصلية التي تم استعواضها لنسبة من خسائرها من الأفراد ونسبة أقل من خسائر الأسلحة ، وتحركت وحدة الرائد فيصل إلى منطقة جنوب الإسماعيلية على الضفة الغربية للقناة يفصلهم مجرى القناة عن القوات الإسرائيلية المنتشية بنصر غير مستحق، المدعمة بما يزيد عن حاجتها من أحدث الأسلحة والمعدات بعد أن فتحت لها الولايات المتحدة ترسانتها العسكرية تختار منها الأفضل بلا قيود، وضاق المجرى المائي في بعض مواقعه ليضيق معه الفاصل بين الأعداء ويصبح كلا الجيشين على قدر مرمى حجر من الآخر.

مضت الأيام كئيبة ومتثاقلة، لم يخفف من وطأة كآبتها إلا العمل الكثيف على مدار الساعة. لم تكن المواقع سوى رمال منبسطة، قد يتخللها بعض من ناتج تطهير مجرى القناة، وكان السباق مع الزمن محتدماً يفرض إنجاز أعمال تجهيز المواقع في أيام مع تعددها وتنوعها؛ فمن حفر للخنادق والملاجئ إلى تكسيتها بملايين الشكائر المملوءة بالرمال .. إلى نقل عشرات الألوف من قطع الحديد المشكل كغطيان للرءوس ومعها لفائف الخيش المقطرن، إلى تجهيز للدشم الخرسانية للمدافع والدبابات حتى التي لم تصل إلى الموقع بعد، استعداداً لاستقبالها والمحافظة عليها .. كانت الأسلحة-حتى السلاح الشخصي للأفراد- قليلة وعزيزة، كان العبء ثقيلاً، والنفوس كسيرة، والمعنويات منخفضة، لم يحافظ على بعض منها سوى الإجماع على الثأر واليقين بأن عزائم المصريين أقوى من كل سلاح ..

عرف الرجال بملحمة رأس العش والدرس الذي لقنه حماتها للعدو واحتفاظهم بها رغم فارق العدة .. والعدد .. ثم جاءت مفاجأة الرابع عشر من يوليو حين سمعوا أزيز الطائرات المتجهة شرقاً وراقبوها وهي تعبر قناة السويس إلى أجواء سيناء وسمعوا سيمفونية الإنفجارات في مواقع العدو ثم توجت عملية إغراق المدمرة إيلات بصاروخ بحر / بحر، هذه الإنتصارات المبكرة، واكبتها عملية استكمال الأسلحة الثقيلة فتزايدت معها ثقتهم في أنفسهم وفي سلاحهم وأمدتهم بعزيمة تفوق مقدور البشر على مواصلة الليل بالنهار في مضاعفة تحصين مواقعهم في مواجهة غرور القوة وصلف القيادة الإسرائيلية وآلة الحرب النفسية الموجهة إلى مقاتلين حفظ لهم التاريخ ما سجلوه من فخار على مر العصور.

كانت الأجازات الميدانية عزيزة وشحيحة يفصل بين كل منها والتالية لها شهران إذا لم تتسبب ظروف العمليات في زيادتها .. وحل الدور على الرائد فيصل لكي يقضي أياماً قليلة مع زوجته، وابنته التي كانت تتهيأ لأول عام دراسي لها في

المرحلة قبل الابتدائية، كان اللقاء مشحوناً بالمشاعر العاطفية مخلوطة برغبة الإطمئنان على أحوال الأسرة الصغيرة، وحاجة إنسانية للتغيير، وتنويع الأماكن، واختلاط الأحاسيس، وتطعيم اللون الكاكى السائد بألوان أخرى تستريح لها العين وتهدأ النفس، والإحتياج إلى هدنة تشحن قدرات المقاتل لمواصلة القتال وسبرغور أشواق لزوجة، وابنة، ووالدين – ربما كتبت له السلامة في كل ما تعرض له من مخاطر – بفضل دعواتهما .. وكثير من الأهل والأصدقاء .. كما كانت بحثاً عن فيض من دوافع الأمل فيما يحمله القادم من الأيام من جهد وعرق ودم.

إرتدى فيصل بنطلوناً وقميصاً، وشرع في إضافة جورب وحذاء، حين لمحته زوجته؛ وفاء، وأبدت دهشة من شروعه في الخروج الفجائي دون أن يخطرها، فأجابها:

– شوية واجبات يا وفاء .. معايا كام جواب من زملا قدامهم وقت طويل على ما يحل عليهم دور الأجازة .. ولازم أوصلها لأهاليهم، واسألهم لو عايزين حاجة منهم..

ثم استدرك:

– لو عايزة تيجي معايا نطمن على زوجة العقيد حسام، ونعمل باقي الزيارات، مافيش مانع ..

وتلقفت وفاء العرض بموافقة فورية، وحماس واضح:

– قوي .. قوي، ياريت يا فيصل.

بعدها بساعة كانا في ضيافة زوجة العقيد حسام التي استقبلتهما بسعادة بادية، بينما أمطرت فيصل بعشرات من الأسئلة عن الأحوال بكل تفاصيلها؛ كيف يعيشون؟ ماذا يأكلون ويشربون؟ هل يتوافر لهم فراش مريح؟ هل الأحوال الميدانية

مطمئنة؟ هل.. وهل... وهل...؟؟ كانت تريد أن تعايشهم؛ ترى وتسمع كل ما يطمئنها عنهم.

ثم كانت الزيارة لخمسة من أسر الضباط والجنود، إستراح بعدها فيصل، وأبلغ وفاء أن من حقه بعدها أن يعيش أجازته وأن ينهل من الراحة والسعادة ما يكفيه ويعاونه على تحمل القسوة والجهد، وتوتر الأعصاب أحياناً!!

وبقدر ما كانت سعادة اللقاء، كانت قسوة الوداع بين حبيبين كان كل منهما يخفي عن الآخر، إحساسه بأن اللقاء قد يكون الأخير، وأن الوداع قد يكون للأبد، لذا تلاصقت الأيدي، وعز عليها أن تنفصل مفسحة الفرصة لفيصل للانصراف ولوفاء بالانطلاق إلى الشرفة تطل منها على حبيب يبتعد ولا تدري ما إذا كانت ستراه يقترب من جديد.

في الموقع بجنوب الإسماعيلية، إلتقى فيصل بقائده العقيد حسام الذي سأله عن أحوال زوجته وابنته التي تستعد لعام الثانوية العامة ولا يعرف عن مدى هذا الاستعداد أو عن ترتيبات الدروس والمجموعات، والكتب الخارجية، وأنهى حديثه بجملة حزينة:

- أنا اللي مصبرني ع البعد، وعدم وجود وسائل اتصال بالأهل؛ الواجب، والتطعيم.

وتساءل الرائد فيصل:

- تطعيم إيه يا فندم؟!!
- مش التطعيم مقصود بيه جرعة من المصل تمكن الجسم من مقاومة جرعة أكبر إذا أصيب بيها؟
- أيوه يا فندم .. وساعات يبقى التطعيم بعد الإصابة. إحنا لما عسكري سواق بيعمل حادثة بنخليه يسوق بعدها على طول عشان ما يخافش من السواقة ويبطلها..

- هو ده تمام يا فيصل .. أنا با اعتبر الفاصل الطويل بين الأجازات – بالإضافة لأنه ضرورة لظروف العمليات – إنه كمان تدريب لينا ولأهالينا على تحمل الفقد الأبدي – احنا يا فيصل معرضين – وببساطة شديدة – إننا لا نشوف أهالينا، ولا يشوفونا ... ولازم نكون جاهزين لليوم ده .. احنا مش أحسن ولا أعز من كل الزملا اللي سبقونا، و....

ولاحظ فيصل اتجاه الحديث إلى أن يكون جنائزياً، فقاطع قائده:

- ربنا يديك طول العمر يا افندم، ولما نستشهد يبقى ربنا يدي أهالينا الصبر!!

مضت الأيام متزايدة في جهدها .. متثاقلة في خطوها .. الرجال يقظون، عيونهم ساهرة وأيديهم قابضة على أسلحتهم، متوثبون لتنفيذ الأوامر، وكانت القيادة تخطط وتعيد تشكيل القوات المسلحة وتزودها بالأسلحة من كل مصدر ومن ورائها قرار للرئيس وتأييد من الشعب بألا صوت يعلو على صوت المعركة.. ورويداً .. رويداً، تزايدت حصانة المواقع ومنعتها، ومعها تزايدت ثقة المقاتلين، ولم يعد كافياً دفاعهم عن مواقعهم، وإنما صدرت الأوامر بدفاع نشط يدفع بمجموعات للإغارة على مواقع العدو، وأسر أحد عناصره أو تدمير موقع أو سلاح، أو كمائن تتصيد دورياته وأفراده، ونشط العمل خلف خطوط العدو.

في صباح يوم مشرق، راقب عبد الباسط حكمدار أحد المدافع الصغيرة تحرك سيارة جيب إسرائيلية ترتفع عليها عدة هوائيات، ما يعني حملها لذوي رتب كبيرة من القادة الإسرائيليين تمضي في خيلاء جيئة وذهابا من الجنوب إلى الشمال، ثم من الشمال إلى الجنوب أعلا الساتر الترابي على الضفة الشرقية للقناة. لم تتحمل أعصاب العريف (الصعيدي) فاستأذن من قائد الفصيلة التي يقع مدفعه في نطاقها أن يتعامل مع السيارة، ورد الضابط الصغير، الملازم حديث التخرج محذراً:

- إوعى يا عبد الباسط .. التعليمات مشددة بضبط النفس، وعدم التعامل مع استفزازاتهم حتى لو أطلقوا النار إلا بعد التبليغ، وصدور الأوامر من القيادة العليا بأسلوب الرد.

وعادت السيارة من جديد لكي تتوقف، ويغادرها فردان؛ يراقبان مواقعنا من خلال نظارات الميدان، ويأتيان حركات مصطنعة لا هدف لها ولا معنى سوى التحدي والاستفزاز .. وعاد عبد الباسط يلح على قائده – الذي ارتفع الضغط على نفسه، وغلى الدم في عروقه – مستأذناً في التعامل مع هؤلاء الخنازير.. وحلت مشاعر الوطنية والكبرياء والكرامة محل مقتضيات الضبط والربط في نفس الضابط، وسأل العريف عبد الباسط بصوت هامس، ووجل:

- عبد الباسط .. انت عارف لو ضربت على العربية وما اتصابتش، إيه اللي حا يحصل؟

- عارف يا فندم .. وإذا حصل كده، أنا حاعمر الطلقة اللي بعدها وأقف قدام الماسورة وأدي أمر للأفراد يطلقوها عليَّ.

ولمعت الفكرة – رغم مخالفتها – في عيون الضابط، واستقرت في ضميره، وقرر تحمل المسئولية وألا يترك ذلك الهدف الثمين، السهل، يمضي دون أن ينال منه ومهما كانت النتائج فأصدر الأمر وكأنما يهمس به في أذن عبد الباسط:

- عَمَّر !!

ونفذ عبد الباسط الأمر في لحظة، ثم واصل الضابط:

- على الهدف اللي في الأمام، لما تكون جاهز؛ اضرب.

وضرب عبد الباسط .. وارتفعت السيارة أمتاراً إلى أعلى، ثم هوت إلى الأرض، ممزقة – وبالضرورة –، وكل من بداخلها.

وهتف الضابط، وعبد الباسط، وأفراد الطاقم، وجنود المشاه القريبون بصوت عال:

- الله أكبر – الله أكبر

احتضن بعضهم البعض، وانسابت دموع، كما انسالت الاتصالات على التليفون الميداني، وعلى جهاز اللاسلكي للسؤال عما حدث وأفاد الضابط قياداته بما وقع، وكأنما يبلغ عن مخالفته بفخر، وليكن ما يكون فبعد أن حقق الهدف، لتهن أي عقوبة توقع عليه، بل تهون حياته نفسها لقاء الصيد الذي اقتنصه، فاحتضن عبد الباسط هاتفاً:

- راجل يا بطل .. وقدْ قولك

لم يمض وقت طويل قبل أن تعتلي كتيبة دبابات كاملة الساتر المواجه للوحدة، وأخذت – في حماية غطاء جوي – تمطر الوحدة التي انطلقت منها القذيفة، بوابل من نيرانها، وشوهدت طائرة عمودية تهبط خلف الساتر لإخلاء خسائر العدو.

استمر القذف طويلا، ونتج عنه استشهاد ثمانية من أعز الرجال، من بينهم العقيد حسام، قائد الوحدة، وأصيب ثلاثة عشر آخرون، منهم المقدم باسل قائد ثاني الكتيبة، وتولى الرائد فيصل، رئيس العمليات قيادة الكتيبة مؤقتاً.

تصور فيصل زوجة العقيد حسام، وهي تتلقى نبأ استشهاده، لقد كانت تستجدي كل معلومة عن حياته، وتتوسل للإطمئنان على راحته، والآن يصلها نبأ استشهاده، وتطمئن على راحته الأبدية .. وتذكر حديث العقيد حسام عن النهاية المحتومة، وعن تطعيم الأهل لتحمل خبرها .. وتذكر حديثه عن ابنته، وقلقه على عام الثانوية العامة، فماذا عن الجامعة؟ وماذا عن الزواج؟

ذرفت دمعة من عين فيصل – ولم تكن لديه رفاهية المزيد، فأمامه عمل كثير كثيف، ومسئولية عن وحدة في الخط الأمامي من جبهة المواجهة، فانطلق يمر على كل السرايا والفصائل يجمع منها حصراً بالخسائر في الأفراد والأسلحة وظروف كل منها، وبياناً بالذخيرة المستهلكة ويرفع معنويات الجميع، ويصدر

أوامره بإعادة تأهيل المواقع، ورفع درجة استعدادها لمواجهة مزيد من الاشتباكات المتوقعة – واطمأن على مواقع الأسلحة الملحقة والمعاونة ومرابض النيران ومراميها.

مضت الأيام والشهور، ومعها ارتفع مستوى الاستعداد، وبدأ التدريب على عبور الموانع المائية، وبدت القوات المسلحة جاهزة ليوم الثأر، واسترداد الأرض والكرامة .. ورحل رئيس للجمهورية، وخلفه رئيس، فاستلزم التغيير مهلة جديدة لإعادة تهيئة الأمور بما يتلاءم مع نظام جديد، ولم تُضِعْ القوات المسلحة وقتها، فاستمرت في التدريب المكثف حتى أصبحت عملية العبور المنتظرة عملاً غريزياً يؤديه الجميع بتلقائية بعد أن تكرر تدريبهم عليه مرات .. ومرات – وعرف كل ضابط وجندي دوره تفصيلاً حين يصدر القرار الذي طال شوقهم إليه.

طالت المدة حتى تسرب الشك في بعض النفوس .. وتكررت المناورات التي أوحت بحلول ساعة الصفر، لكنها كانت تمر كأي تدريب حتى تعامل العدو معها كعمل روتيني لا يستأهل القلق أو رفع درجة الاستعداد، وفتحت الأجازات بمعدل أكبر، وأعلن عن ترتيب لأداء الضباط للعمرة، وتم السماح بتسريح من يرغب من قدامى الضباط الإحتياط فأوحى باسترخاء عسكري غير مسبوق – وما أن ابتلع العدو الطعم ، واطمأنت القيادة إلى نجاح خطة الخداع الإستراتيجى واعتقاد العدو أنها في سبات عميق، وبحلول السادس من أكتوبر ١٩٧٣، إذا بالطلعة الجوية الصاعقة، وتحضيرات المدفعية، وعشرات الألوف من أبناء مصر الأوفياء يغطون صفحة القناة على الكباري التي أنشأها سلاح المهندسين العسكريين وفي مئات القوارب المطاطية، وأهالت خراطيم المياه الساتر الترابي وعبره المقاتلون حيث دمروا خط بارليف المنيع.

كان الرائد فيصل ضمن وحدته في طليعة من عبروا إلى سيناء، رأي العلم المصري يرتفع من جديد إلى سماء سيناء، وقرأ الفاتحة على أرواح من سبقوا إلى

رحمة الله منذ الخامس من يونيو ١٩٦٧ وحتى اللحظة، ورفع يده للتعرف على الوقت فلم يجد ساعته في معصمه.

تذكر أنه دفنها في أرض سيناء، فتذكر رفيق العمرة وحديثه عن عودة من ترك متاعاً في أرض مقدسة إلى هذه الأرض ولو بعد حين، قال في نفسه:

الحمد لله تركت ساعتي في أرض مقدسة، وحلت الساعة التي أعود إليها، عدت إلى سيناء، ولن أترك أرضها أو أتخلى عنها ولو لساعة.

***

قهوة على الصعيدى

على ناصية شارعين رئيسيين متسعين فى حى الأربعين بمدينة السويس، اعتادت "شلة" الأستاذ/ حمزة بسيونى، مدير إدارة حكوميه بالمعاش، أن تحتل مقاعدها على رصيف المقهى من الخامسة مساءً إلى قبيل منتصف الليل يومياً.

كانت الشلة تضم مجموعة ممثلة لأطياف المجتمع المصرى، فنمر الأسوانى سمسار عقارات على مستوى، يغلق باب مكتبه فى الرابعة، ويمر على المنزل فى نفس العقار فيتناول غذاءه، ويستبدل ملابسه، ثم يحرص على التواجد فى المقهى قبل الموعد بقليل؛ فهو الأقرب إليه عملاً وسكنا. أما زكى حسونه والذى ينادونه بِسونه فكان شاباً معجبانيا نرجسياً من طبقة الأعيان؛ أى أصحاب الأملاك والذين أطلقت عليهم ثورة ١٩٥٢؛ العاطلون بالوراثة، فتتبدل هيئته فى كل يوم من الجلباب السكروتهإلى الكشميرة، إلى الملابس الأفرنجية ورباط العنق، ودائما ما تفوح منه روائح العطر الفرنسى، وتنتظر سيارته الـ١٢٨ موازية للرصيف المقابل للمقهى، وتؤدى من الحين للحين خدمة لأحد أفراد المجموعة أو أعضاء أسرهم– وأماسعد عبد الشهيد فهو تاجر خرده بدأ تجارته معتمداً علي المزادات التى كانت معسكرات الإنجليز تعلن عنها وتبيع فيها سياراتها المكهنة؛ فيشترى السيارة، ويبيعها بالمسمار أو الصامولة وفى ذلك ربح وفير .أما مصطفى عبد العزيز فكان موظفاً فى وزارة الداخلية (فى السجل المدنى أو إدارة الجوازات) وكان يطلق شارباً كثيفاً مقلداً لبعض ضباط الشرطة فى ذلك الزمن؛ لذا أصبحت كنيته شنبو، بدلا من عبد العزيز، إسم والده الحقيقى..

وكثيراً، ما انضم لجلسة الشلة، المعلم على نفسه، صاحب المقهى والذى عرفه الناس باسم الصعيدى، لأنه قدم من مصر العليا منذ ربع قرن فعمل فى المعمار كغالبية رفاقه النازحين ثم اعتاد أن يعد الشاى لأفراد "الطبلية"ونجارى

وحدادى المسلح، وحقق دخلاً طيبا من ذلك العمل فتفرغ لأدائه، ثم أقام "نصبة" يعد فيها المشروبات ومالبث أن استأجر هذا المقهى منذ عشر سنوات..

كانت لقاءات المجموعة أشبه بصالون ثقافى مفتوح، يطرح أحدهم موضوعاً أو قضية فى كل ليلة فيتناقشون حولهاويدلون بأدلائهم فى تفاصيلها على وقع "كركرة" الشيشة وأنفاس التبغ، وأصوات الملاعق تذيب السكر فى أكواب المشروبات أو نزع أغطية زجاجات المثلجات باحترافية عالية تصدر عنها فرقعات تسمع من بعيد ..

وقليلاً ما أطل التحدى فجئ بالطاولة أو الدومينو، ووصلت إلى الرهان على المشاريب من مبدأ أقره الأستاذ/ حمزه: "العلام بفلوس" ونادراً ما أنصت الجميع لصوت الراديو أو التليفزيون لسماع "الست "أم كلثوم أو حفلة منوعات لعبد الحليم حافظ وشادية ووردة وفايزة وغيرهم من فنانى تلك الفتره وغالباً ما كان ذلك قاصراً على الخميس الأول من الشهر.

مر العام ١٩٦٥ والعام ١٩٦٦ دون أن تكون السياسة مكوناً رئيسياً أو هاماً فى لقاءات الشلة حيث اقتصرت حين فرضت نفسها–على مناقشة حرب اليمن وجدواها، وتأثيرها على قوتنا تجاه إسرائيل، ونادراً ما همس أحدهم بصوت لا يكاد يسمع عن مشاكل التموين والجمعيات الإستهلاكية أو الفساد والرشوة.

كانت خلاصة رأى المجموعة أن مصر قادرة على محو إسرائيل، رغم وجود كل تلك القوات فى اليمن، واستند البعض إلى تصريحات بعض الساسة، والعسكريين، ورجال الإعلام .. وذات مساء–وبينماالشلة تتحاور – توقفت فوراً حين صاح المعلم على الصعيدى:

– سمع هس. كله يسمع الكلام الحلو اللى بيقوله التليفزيون...

ولم يكن ما يقوله إلا إعلانا عن قرار الرئيس جمال عبد الناصر بإغلاق مضيق تيران أمام الملاحة الإسرائيلية .. كان رد فعل الجالسين قوياً تبلور فى عبارات قصيرة متزامنة.

قال الأستاذ حمزه:

- يا نهار اسود!

وقال نمر:

- أكيد دا خبر جامد، بس معناه إيه؟

بينما قال سونة:

- وإيه الجديد؟ هما كانوا بيعدُّوا منه؟

أما سعد عبد الشهيد فكان تعليقه:

- هوه فين أصلاً مضيق تيران ده؟

وبينما صمت مصطفى شنبو، هتف المعلم على:

- والله دكر ياريس. أنا صحيح مش فاهم الموضوع. بس المهم إن الريس يتحكم فى اولاد الهرمه دول ويمشى كلامه عليهم.

وانبرى الأستاذ يشرح الأمر للجميع، حيث أنصتوا فى اهتمام:

- شوفوا يا جماعة – المضيق ده فى مدخل خليج العقبه بين مصر والسعودية، وهو اللى كانت بتمر منه السفن الإسرائيلية علشان توصلإيلات بناء على قرار دولى سنة ١٩٥٦ بخصوص انسحاب قوات العدوان الثلاثى. وإغلاق الخليج ممكن إسرائيل تعتبره إعلان حرب.

هنا تدخل شنبو بينما برم نهايات شاربه:

- ما يعتبروه زى ما يعتبروه.ياريت يحاربونا عشان يبقوا جنوا على نفسهم.

لكن الأستاذ الذى كان متحمساً رغم قلقه، علق عليه قائلاً:

- الحرب مش بالسهولة دى يا جماعه وخصوصاً إن نُص قواتنا فى اليمن، وبعدين حالة التموين فى البلد ماتكونش مناسبة لو الحرب طولت ..

استمرت المناقشات بينهم حتى نهاية السهرة، وبدأت فى اليوم التالى من حيث انتهت، قطعها من الحين للحين خبر فى التليفزيون مع لقطات حية لعبور وحدات رئيسية من القوات المسلحة إلى سيناء.

بدأت أجواء الحرب تسيطر على المناقشات، وارتفعت الحماسة، وقال سعد عبد الشهيد:

- إيه رأيكم يا جماعة نجمع تبرعات نساعد بيها الدولة على مصروفات الحرب. أنا كنت باتكلم امبارح مع العيلة فى الموضوع ده ومراتى قالت لى: "أنا موافقة يا سعد"، حاتكلم يوم الحد الجاى مع اصحابى فى الكنيسة، إننا نوفر كمان فى شرا التموين عشان نوفر للجيش.

ورد نمر مستحسناً:

- دا احنا كمان يا جماعة ممكن نطلب من الجيش فتح معسكرات لتدريب المتطوعين، ونطوَّع. لامؤاخذة يا أستاذ حمزه إنت سنك يعفيك، وانت كمان يا سونه معفى، ولو انى مش عارف ليه.

وضحك الجميع بينما علق الأستاذ مطيباً خاطر سونة:

- ماتزعلش يا سونه. نمر ما يقصدش حاجه بس القافية تحكم، لكن بخصوصى أنا ممكن أكون أول واحد يتطوع، عشان اللى بيشيلالبندقية بيعوز سبعة وراه يخدَّموا عليه. وشهدت الشلة انتظاماً فى الحضور. لم يتخلف أحد ولم يتوقف أحد عن طرح المقترحات فيما يمكن أن يقوموا به ..

وفى صباح الأثنين ٥ يونيو١٩٦٧ توالت البيانات العسكرية عن عدوان إسرائيل وإسقاط القوات المسلحة لعشرات الطائرات المعتدية، وصفق الحضور مع كل بيان، ونادى المعلم على "صبيَّه" فرج بصوت جهورى:

- افتح الثلاجه يا فرج ووزع الكازوزة على الزباين وعلى اللى ماشيين فى الشارع ببلاش.
- ولم يفهم فرج؛ فتساءل:
- إيه المناسبة يا معلم؟
- دى الفرحة اللى احنا مستنيينها بقى لنا عشرين سنة .ياللا يا حبيبي افتح!

ثم مالبثت أن تكشفت الحقائق؛ فساد الوجوم والحزن مع بصيص أمل فى أن تتمكن القياده .. من إنقاذ الموقف .. وأعلن عن خطاب للزعيم انتظره الكل بلهفة .. وأعلن المذيع عن الخطاب وقدم الرئيس. ولم يستبشر أحد، فقد كان الحزن البادى على وجهه كافيا لتوصيل الرسالة، وأعلن الرئيس تنحيه عن السلطة.

هب الجميع وقوفا. البعض صرخ، والبعض ساده الوجوم، وآخرون أجهشوا بالبكاء؛ وجلس الأستاذ أو هو انهار على المقعد، وبعد دقائق تمالك نفسه وخاطب الشلة وكل زبائن المقهى:

- ما لناش قعاد يا جماعة، قوموا كلكم نروح البيت للريس، ونقوللوا لأ. إحنا مش موافقين إنك تسيبنا. إنت أملنا، واحنا وراك. (ثم وقف فوق الكرسى ليراه ويسمعه الجميع، واستأنف حديثه):
- إحنا خسرنا معركة، لكن الحرب لسه فيها كثير.

إستحسن الحاضرون الرأى، وانتظموا فى قافلة قادتها سيارة سونه وتبعتها عدة سيارات ملاكى ولوريات تحركت فوراً إلى القاهرة واتجهوا إلى بيت الرئيس ولم يغادروا إلا فى الظهيرة من اليوم التالى حين أعلن الراديو والتليفزيون أن الرئيس سحب قرار تنحيه نزولاً على إرادة الشعب.

لم تعد السياسة تلمس مناقشات الشلة وباقى رواد المقهى من بعيد، أو على فترات، وإنما أصبحت شاغل كل يوم، تتقدمها أخبار القوات المسلحة والأعمال الحربية المجيدة التى تلاحقت، وعلى فترات متقاربة؛ فمن رأس العش التى أبلت فيها فصيلة من الصاعقة بلاءً مشرفاً حيث ردت مدرعات العدو خائبة بعد أن دمرت منها ثلاث دبابات وقتلت من جنودها الكثير، وذلك بعد النكسة بأسابيع قليلة، إلى معارك الطيران فوق سيناء بعد ذلك بأسبوعين، وتدمير مدفعيات للعدو، وإصابة طائرتين له، ثم إغراق المدمرة إيلات بعدها بثلاثة شهور وغرق كثير من بحارتها، وصاح سعد حين أعلن مذيع التليفزيون بيان إغراق المدمرة:

– يا حلاوة ولادنا، فى شهر واحد أدبوهم فى البر والجو والبحر.

وعلق الأستاذ حمزه:

– برافو يا سعد. والله صحيح. احنا لو استمرينا على كده فى ست أشهر نكون خلصنا تارنا.

وتساءل سونه:

– أمال كان فين بس الكلام ده يوم ٥ يونيو؟

وأجابه نمر موافقا:

– الأمريكان والروس نَّيمونا، والتانيين خدونا على خوانه، لكن لما نفوق لهم ونصحصح حانوريهم وندوقهم العذاب ألوان .. (ثم استطرد قائلاً)، دا أنا أقولك على حاجه جديدة علينا: أنا باسأل الواد ابنى – ما هو مجند زى ما انت عارف – عن الأخبار وعاملين إيه؟ يقول لى إحنا بخير وهاتسمعوا كل خير، ومايرضاش يزود كلمه ولا يبحبح معايا فى الكلام.أقول له دا أنا بوك ياواد، يقول لى: ما هو أنا لما أقولك علشان انت أبويا، وانت تقول لصاحبك عشان

هو صاحبك، وصاحبك يقول لقريبه، يبقى مافضلش حد ما يعرفش، وما يبقاش فى سرية، وهى أساس المفاجآت.

وسرح فى لحظه صمت ثم استأنف:

- ربنا يحميهم واحنا مش عايزين نعرف حاجة إلا لما تحصل.

وخلال جلستهم المعتاده شاهدوا وهجاً شديداً وسمعوا أصوات انفجارات هزت بيوت المدينة مالبثوا أن أيقنوا أنها بفعل إسرائيل التى وجهت مدافعها لتدمير الزيتية وما بها من معامل تكرير ومستودعات للبترول، فابتسم حمزه فى أسي وقال:

- شايفين؟ ما اتأخروش فى الرد، بس بطريقتهم الجبانة، إحنا نواجه عساكرهم وأسلحتهم وهما يضربوا البيوت والمستودعات والمدنيين، بس ولو، والله هانوجعهم؛ وكويس إن إخواتنا العرب قرروا دعمنا بخمسة وتسعين مليون جنية استرلينى كل سنة عشان نستمر فى تعويض الخساير وكمان الست أم كلثوم والفنانين المحترمين ولعيبة الكوره شغالين الله ينور فى جمع التبرعات، والشعب كله مستعد يشد الحزام سنة .. أثنين .. عشرة. لغاية ما نزيل آثار العدوان إن شاء الله وياريت توافقوا معايا عاللى حاقوله.

وجهوا أنظارهم جميعاً إليه وسألوا فى صوت واحد:

قول يا أستاذ:

وقال سعد فى حماسة إضافية:

موافقين إن شاء الله قبل ما تقول ..

ونظر الأستاذ إلى المعلم على، ووجه الكلام للجميع وله على وجه الخصوص:

- معلش يا معلم على، أنا باقترح إننا نمتنع عن الشيشة من انهارده ونحط صندوق عندك فى القهوةوكل يوم نحط فيه الحساب إللى كنا بندفعه، وآخر كل

شهر نروح نحطه فى حساب التبرعات فى البنك،وعلى أى حال، كده .. كده، هاندفع حساب المشاريب.

وافق الجميع بلا تردد، وبعتاب شديد علقالمعلم على الصعيدى:

- إخص عليك يا أستاذ. هو أنا أقل منكم؟ ولا ماليش فى مصر؟ طب علىَّ الطلاق لاكون دافع قد المبلغ اللى حاتجمعوه. وإن كان ع الشيشة دا الرزق مش عليها ولا على حداد الرزق على ربنا.

مع مضى الأيام؛ تضاعف ضرب الأهداف المدنية، وتدمير المنازل فى مدن القنال مما اضطر الحكومة إلى إعلان خطة لتهجير السكان إلى مدن الدلتا والصعيد، واختار كل منهم مدينة يأنس لها لوجود أقارب أو أصدقاء يستضيفون أسرهم أو الإقامه فى المدارس ومراكز الشباب.

فى اللقاء اليومى طرح سونه سؤلاً:

- حاتعملوا إيه يا جماعة؟ حانتفرق فى مصر كلها؟

وأجابه مصطفى شنبو على الفور:

- أنا مش حاسيب السويس -أنا حاودى الولاد عند نسايبى فى الزقازيق وراجع، ولازم ننظم مقاومة شعبية ونتدرب على السلاح، وما نسيبش العملية على الجيش عشان ما ينشغلش عن الجبهة.والعمليات بتاعته.

وتوالى تعبير الجميع عن استحسان القرار والتزامهم به بعد تهجيرأسرهم للإقامة عند أقاربهم فى مدن الوجهين البحرى والقبلى.

وأعلن المعلم على أن القهوه ستصبح مركز تجميع للمتطوعين وأن المشاريب ستقدم مجاناً أثناء تقدمهم وإعداد الكشوف وغير ذلك ..وأتت الرياح بما اشتهت السفن رغم تصعيد إسرائيل لعملياتها ضد المدنيين فى المدن الثلاث وغيرها، كما فعلت فى ضرب مدرسة بحر البقر فى فترة الدراسة فقتلت من الأبرياء من قتلت،

وضرب مصنع أبى زعبل، وبدأت توجه أعمالها ضد الأهداف المدنية بداية من محولات نجع حمادى، وتشكلت قوات الدفاع الشعبى لحماية الأهداف الحيوية، وتصاعدتعمليات القوات الخاصة خلف خطوط العدو؛ فارتفعت معنويات الشعب وازداد تصميماً على تحمل كلفة القتال من قُوته ومن شهدائه، وبدت السويس خالية إلا من مجموعات متناثره من الرجال صمموا على حمايتها والدفاع عنها بسواعدهم.

وجاء اليوم حين كانت المجموعة تجلس حول مائدة داخل المقهى على ضوء التليفزيون وموارية أبواب وشبابيك المقهى التى طليت باللون الأزرق وشدت على الزجاج شرائط الورق اللاصق أو السلوتيب، وقطع الإرسال فجأة، وبعد فاصل قصير من المارشات العسكرية، جاء صوت المذيع:

نجحت القوات المسلحة فى عبور قناة السويس على طول المواجهة ..

ولم يسعفهم الصبر لسماع باقى البيان فوقفوا يتعانقون ويهتفون:الله أكبر .. الله أكبر

قال المعلم على:

- مش قلت لكم فَرَجُه قريب .. يابركة شهر الصوم. ربنا ينصركم يا اولادنا يا أسود.
- وقال سونه:
- أيوه كده بقى نعرف ننام واحنا مطَّمنين.

وذكَّره الأستاذ بالمسلمين الأوائل حين اطمأنواللنصرفى المرحلة الأولى من القتال، فكانت الهزيمة من نصيبهم فى غزوة أحد.

- إوعى. دا أحنا لازم نصحى .. ونفتح عنينا. هو احنا ما اتعلمناش؟ ولاَّ إحنا فاكرين إنهم هاياخدوا قلم على قفاهم، ويقولوا، خلاص كده؟ بكره الصبح نتقابل

فى مركز الشباب مع النقيب عادل ونشوف تعليمات الجيش إيه للمقاومة، وناخد معانا السلاح نعمل طابورنظافة ونتمم على الذخيرة اللى معانا وما فيش نوم..

ومرت أيام القتال رائعة. المعنويات فى السماء .. والأمل يتضاعف .. والتلاحم مع القوات المسلحة والثقه فيها على أعلى درجة، وكل الحوارات تؤكد على سيادة الحب وتتعجب من أن جريمة سرقة واحدة أو تعد على أحد المواطنين لم تسجل فى أيام الإنتصار وفى منتصف أكتوبر حدثت الثغرة وأرادت القوات الإسرائيلية تسجيل نصر شكلى يعطيها ورقة سياسية تقايض عليها، فحاولت الإتجاه شمالاً لاحتلال الإسماعيلية، وصدتها قوات الجيش الثانى الميدانى، فاتجهت جنوباً إلى السويس وتمت مقاومة الدبابات الإسرائيلية ودمرت معظمها فى مدخل السويسوفى شوارعها الداخلية وعند قسم الشرطة، واستطاعت مجموعة مقهى الصعيدى وحدها تدمير دبابة وعربة مدرعة وقتل كل أفرادها عدا جريح واحد تم أسره وتسليمه للسلطات، وانتصرت المدينة يوم الرابع والعشرين من أكتوبر، ودعى سكان المدينه للإحتفال أمام المقهى، على نغمات السمسية. رفع المعلم على العصا وأخذ يرقص فى مرح وسعادة؛ ولدهشة الشلة، فقد فوجئوا بسونه يركب حصاناً عربياً ويرقص به على الأنغام، ولم يتمالك نمر ولا سعد أو شنبو أنفسهم من الرقص كيفما كان، ولم يمنع الوقار الأستاذ حمزه بسيونى من سحب شال المعلم على من على كتفه حيث لفه على وسطه وأخذ يشارك الجميع فى الرقص والمرح.

* * *

المساعيـد

هلَّل دسوقي وهتف بأعلى صوته: الله أكبر! قبل أن يشاركه في الهتاف بها عشرات الآلاف من رفاقه لحظة عبور قناة السويس إلى ضفتها الشرقية، ذلك حين سمع أزيز الطائرات ورآها تتجه إلى سماء سيناء لتحقق من خلال ضربتها الجوية الأولى؛ تدمير مراكز القيادة والسيطرة، والمواقع الحصينة، والأهداف الهامة للعدو على أرض سيناء المحتلة.

شارك دسوقي في ملحمة تحرير القنطرة شرق، ولم تُقلِّل من حماسته؛ إصابته بشظية حادة تسببت في بتر ساقه اليسرى حيث دُفنت في سيناء، بل طلب من قيادة وحدته الاستمرار في الخدمة ومواصلة القتال...

أُخلي دسوقي للعلاج وأُنهيت خدمته العسكرية، ووفرت له الدولة وظيفة مدنية تتناسب مع مؤهله وهو الإعدادية الأزهرية، لكن قلبه ظل معلقاً بسيناء، يهفو إلى زيارتها وتنسُّم ريحها مُكرِّرًا:

- دا أنا حتة مني مدفونة في أرضها ..

ومر الزمن على دسوقي متردداً في الزواج رغم رغبته فيه، وقدرته عليه حيث كان يتشكك في أن تقبل عروس - أي عروس - الارتباط برجل مبتور الساق، رغم إحساسه هو بأن مصدر فخره - كالوسام الذي مُنحه تماماً - هي ساقه التي فارقته، وقرَّت نفسه بسكناها في رمال سيناء، لكنه يوم التقى خيرية لم يتحرج من مفاتحتها برغبته في الإرتباط بها لأنها شقيقة شهيد، لقى الشهادة في نفس يوم إصابته هو .. وبالفعل لقى منها القبول.

تقدم لأسرتها .. وتم الإتفاق على التفاصيل .. وأعلنت الخطوبة وبعدها بشهر واحد عقد القران ثم أبطأ الخطوة الأخيرة حيث طلب تأجيل الزفاف لثلاثة

شهور حتى يتوافق مع يوم السادس من أكتوبر في الذكرى الخامسة لمعركة الشرف.

مضت حياة الزوجين سعيدة؛ يحوطها الرضا حتى رزقا ابنتهما عفاف، وبعدها بثلاث سنوات مَنَّ الله عليهما بالإبن حسن، وشكرا الله أن أنعم عليهما بالولد كما وهبهما البنت وسار بهما قارب الحياة يتهادى على سطح بحيرة هادئة.

حين اكتمل تنفيذ بنود معاهدة السلام، وتمت استعادة مصر لكل أرض سيناء – باستثناء طابا – تاقت نفسه، وهفا فؤاده لزيارة أرضها ورؤيتها في ظل السلام، وشغله التفكير في الإعداد لهذه الزيارة على مدى شهور طويلة، لم يعد بعدها يطيق الإنتظار أو التسويف مهما كانت الأعذار – وذات أمسية ربيعية صافية، وفي جلسة هادئة في شرفة مسكنهما، عرض دسوقي على خيرية فكرة راودته منذ حين، وقلبها في تفكيره حتى استقر رأيه بشأنها، ولم يبق سوى رأي شريكة حياته حتى تغدو قراراً ينتظر التنفيذ:

– أنا بافكر في حاجة يا خيرية، وياريتك تشجعيني اعملها، وماتكسريش مقاديفي فيها.

– خير يا دسوقي، وأنا من إمتى ماكنتش مهاودة وموافقة على كل اللي انت بتوافق عليه؟

– ربنا يخليكي يا خيرية .شوفي يا ستي؛ أنا عايز اسافر أَلِفّ في سينا من شرقها لغربها ومن شمالها لجنوبها، على مرة واحدة ولا أكتر من مرة، وأحب إنك انتي والولاد تكونوا معايا، صحيح حانتكلف أكتر، وحانتعب زيادة، لكن أنا عايزكم تشوفوا سينا وتحبوها زي ما أنا بحبها، وعايز حسن يرضع حبها .. وعلى فكرة؛ أنا مش حا ازعل، لو ماكانش عندك نفس الحماس، عشان مسئولية العيال، لأن الشيلة حاتكون عليكي أتقل .. وحسن لسه بيرضع.. وقاطعته خيرية في حماس فاجأته درجته العالية:

- إخص عليك يا دسوقي .. هو أنا يهون عليَّ تسافر كده سواح لوحدك، لا اعرف مين حايحضرلك لقمتك، ولا اطمِّن حاتنام فين؟ ولا حاتسافر إزاي؟ دا أنا رجلي على رجلك وزي ما تيجي .بس السفرية دي حاتعوز مصاريف كتيرة يا دسوقي .حاندبرها إزاي؟
- ما هي دي المفاجأة يا خيرية. أنا كنت باخنسر كام جنيه من المرتب، ودخلت بيهم جمعية مع زمايلي في المكتب، وحا اقبضها أول الشهر الجاي إن شاء الله. وانت برضه جهزي لنا شوية قراقيش بالعجوة على علبة جبنة، وكام رغيف من اللي بتخبزيهم، يوفروا لنا شوية في المصاريف.

اتفق الزوجان على التفاصيل، وأمسك دسوقي بخريطة سيناء، ليضع الخطة، وفي بساطة، استقر على تقسيم تحركه إلى رحلتين قرر في حسم أن تكون الأولى في شمال سيناء لأن طريقها يبدأ على طريق الإسماعيلية - بورسعيد بالقنطرة غرب وعبور القناة في المعدية إلى القنطرة شرق التي أهاج ذكرها خيالاته واستعاد أمجد الذكريات، وأراد أن يرى كتلة اللهب، بعد أن سادها السلام وأصبحت خالصة لفريق واحد هو أهلها؛ أصحاب الحق في العيش فيها، وفرت دمعة من عينه وتمنى لو كان السفر صباح الغد، أو الليلة ..

تمت الاستعدادات، وبمجرد صرف مرتبه، وتلقيه مستحقاته في الجمعية، تقدم بأجازة من العمل لمدة عشرة أيام تبدأ من اليوم التالي، والذي بدأه بصلاة الفجر ثم صحب زوجته وطفليهما إلى موقف سيارات العريش، حيث حجز المقاعد الخلفية في المرسيدس صاحبة الدور في التحرك، وجلس إلى جوار الشباك الأيمن، وزوجته إلى جوار الشباك الأيسر وطفليهما بينهما، وبدأ يحملق في الطريق من بداية التحرك من القاهرة، وكأنه يرى ما اعتادت عيناه على رؤيته بمنظور جديد يعكس عليه ما سوف يراه لاحقاً في سيناء. كان يسبق السيارة بخياله، وكان يتعجل الساعات والدقائق ليجد نفسه على أرض سيناء، وعندما عرجت السيارة إلى اليمين

وقرأ لافتة تعلو الطريق مشيرة إلى القنطرة شرق، امتدت رقبته ودفعت برأسه من خلال شباك السيارة إلى خارجها، ما دفع السائق حين لمحه في المرآة العاكسة إلى تنبيهه بنبرة آمرة:

- دخل دماغك يا أستاذ .. الله لا يسيئك.

وتنبه دسوقي، فأعاد رأسه لتحاذي زجاج الشباك، وما زالت عيناه تلتهمان كل الصور في نهم حتى استقرت السيارة في طابور؛ انتظاراً للدور في ركوب العبارة، وحين استقرت السيارة فوق العبارة، مال برأسه نحو زوجته وقال بفخر خفيض الصوت:

- عارفة يا عفاف إن احنا عبرنا هنا من أكتر من عشر سنين في قوارب مطاط، والقنابل حوالينا والرصاص فوق دماغنا؟ شوفي احنا انهارده بنعبر في معدية في أمان وهدوء شكله إيه؟

- يا حبيبي؟! الحمد لله إنك عشت وشفت الأمان ده ..

وظل دسوقي يقص لها تفاصيل ما حدث في معركة القنطرة شرق خلال الفترة التي توقفت فيها السيارة لراحة قصيرة تناولا خلالها كوبين من الشاي من تُرمُس أعدته خيرية، ثم أخذ دسوقي يخطو ذهاباً وإياباً أمام الاستراحة التي قصدها بعض الركاب .كانت خيرية تمسك عفاف بيد وتمسك بحسن باليد الأخرى، وعينها على زوجها في خطواته، وتتفرس في ملامحه الغارقة في بحر الماضي، وسايرته هي الأخرى فرأته يقفز حاملاً سلاحه؛ يقاتل بشجاعة وخفة حركة، وتذكرت شقيقها و رفيق زوجها الذى استشهد فى نفس اليوم فتمتمت بقراءة الفاتحة قبل أن تفيق على صوت السائق يستدعي الركاب للعودة إلى السيارة، فوقعت عيناها على العكاز تحت إبطه الأيسر يخطو جهد طاقته في اتجاه السيارة .. فتأثرت أيما تأثر .. ومن خلال شباك السيارة، تابع علامات الطريق واللافتات الإشارية .. وتمنى لو كانت معه سيارة خاصة ليتجه يساراً نحو البحر إلى بالوظة ورمانة، ودخل في

حوارات مع بعض الركاب من أبناء سيناء فاستزاد علمًا عن كل مدينة .. وكل قرية، وحين مر بمدينة بئر العبد أخبره الرفاق بأنها العاصمة الثانية لشمال سيناء ثم مرت السيارة بقرية التلول، وعندها رأى سهماً يشير إلى اليسار مكتوب عليه : إلى بحيرة البردويل .فسأل العرايشي الجالس أمامه في السيارة:

- بحيرة البردويل دي فيها سمك كويس؟

وأجاب السيناوي الأصيل وكأنما يتغزل في خيرات البحيرة:

- يا أخي دي من أحسن البحيرات في العالم في إنتاج الأنواع الممتازة من السمك. البحيرة مساحتها أكتر من ستاشر ألف فدان بتربطها بواغيز بالبحر الأبيض، وفيها كميات مهولة من سمك الدنيس والبوريوالقاروص والجمبري المتربية ع الغالي عشان مَيَّة البحيرة أنضف مَيَّة .

وعند الحدود الشرقية للبحيرة رأى لافتة مكتوب عليها: محمية الزرانيق، وقبل أن يسأل، التفت إليه رفيقه ابن مدينة العريش قائلاً:

- ودي محمية الزرانيق بتستقبل ٢٤٤ نوع من الطيور المهاجرة من أوروبا في الخريف وفي الربيع.
- ثم استدرك قائلاً:
- إذا كنت نازل العريش .أنا شايف إن عندك اهتمام تعرف كل حاجة، أنصحك تروح حديقة الحيوان في العريش، ولازم تزور مستوطنة ياميت عند قرية أبو شنار اللي اليهود بنوها أثناء الاحتلال وهدموها قبل ما يسلموها لمصر بعد الاتفاقية ... وتشوف الشيخ زويد والشاطئ الجميل، والنصب الحجري هناك، وطبعاً تشوف رفح المصرية ونقط الحدود، وممكن تاخد الأتوبيس من ميدان البلدية، ومن نفس المكان تقدر في يوم تاني تاخد الأتوبيس وتروح الريسة، حتة من الجنة؛ تنزل البحر وتطلع تقعد تحت النخل والبلح يسقط حواليك ..

وفي الأيام التانية تقدر تزور متحف التراث والمينا عشان تشوف منظر جميل والناس اللي بتصطاد السمك، وماتنساش تزور سوق الخميس في العريش وتشوف خيرات ربنا اللي كنا محرومين منها ..

أنصت دسوقي حتى انتهى البدوي من الحديث فأعطى الورق الذي سجل عليه كل ما قاله رفيق الرحلة، والقلم إلى زوجته، ومال بجسده إلى الأمام ولما اقترب رأسه من رأس السيناوي الرائع، مدَّ يديه وقرَّب رأس الرفيق إلى رأسه وقبله أكثر من مرة شاكراً له سرد كل تلك المعلومات الوافية التي سهلت عليه رسم برنامجه، وسأله سؤالاً أخيراً:

- ياريت بقى مزيد من فضلك تشور عليَّ بمكان أنزل فيه مع الولاد ويكون كويس ورخيص وابن حلال.

أجاب العرايشي بلا تردد، وفي نبرته إصرار حقيقي:

- تشرفوا بيتي يا أخي، الحوش فسيح وياخد من الحبايب ألف.
- ربنا يخليك. دا أنا مش حا أنسى فضلك، بس عشان أنا أول مرة آجي العريش. باسألك النصيحة، ويبقى لك كل الشكر.

وأبدى العرايشي ملحوظة خجولة:

- يا أخي بدون إساءة. أنا لاحظت في الاستراحة، إن رجلك يعني بعافية وانت أول مرة تيجي سينا ومعاك الحرمة والولاد. فلو سمحت ..

وقاطعه دسوقي مصححاً في فخر:

- صحيح أول مرة آجي العريش .لكن جيت سينا وحاربت على أرضها، ورجلي اتقطعت واندفنت في سينا، بعد مشاركتي في معركة تحرير القنطرة شرق.

وصاح العربي الأصيل رفيق الرحلة:

- يعني شاركت في رجوع الكرامة والشرف لينا كلنا، وبطل من أبطال أكتوبر ومستكتر عليَّ أضيفك في بيتي .والله ما انت رايح في مكان إلا بيتي وتقعد يوم .. اثنين .. أسبوع .. شهر. على الرحب والسعة.

وكان .. وفي ضيافة سالم العرايشي قضى دسوقي واسرته أسبوعاً طاف بكل المعالم، فقط اعتذر له بعدم اصطحابه في زيارة قلاع العريش، ونخل والمغارة، والجورة، ولحفن لأن مناطقها، لم تستعِد مدنيتها الكاملة بعد، واعداً إياه بتغطية زيارتها في مرات قادمة إذا أذن الله بتكرار اللقاء.

وبعد انتهاء الزيارة - وخلال رحلة العودة شاهد دسوقي قولات من سيارات نصف النقل محملة بالزيتون والبلح والخوخ والكانتلوب، غير ما رآه في الأرض المنزرعة -رغم قلة الموارد المائية - بالجوافة واللوز والتفاح والعنب، والتين الشوكي والبرشومي، والبطيخ .. والنباتات الطبية مثل: السكران- الزعتر- الحنظل - القيصوم والخروع، وتذكر ما أخبره به صديقه سالم خلال سفرهم إلى رفح أن شمال سيناء تجود مناجمها ومحاجرها بالفحم والرخام والكبريت، وطفلة الأسمنت والرمال البيضاء والسوداء، والأملاح، إضافة لما ينطلق علىأرضها من الغزلان والثعالب والضباع والأرانب البرية .. وما يحوم في سمائها من الصقور والشنابر والرخم والبشاروش والنورس والسمان والشرشير.

كما أخبره خلال زيارة ميناء العريش أن مصايد الأسماك في البحر الأبيض يتنوع إنتاجها، من الوقار إلى السردين، إلى سمك موسى والكابوريا والسوبيا والغزلان والباغة والسريدي والمتياس التي يتراوح وزن السمكة الواحدة منها بين خمسة عشر إلى خمسين كيلو جراماً.. وغيرها.. وغيرها ..

وعند القنطرة شرق، أخذ يسائل نفسه:

- كيف فرطنا في هذه الخيرات؟ كيف تركناها للعدو ينهب منها ما يرضى بعضًا من طمعه غير المحدود؟

وحين رأى العلم المصري خفاقاً فوق مباني المدينة – حتى المباني غير الرسمية – حمد الله، وشكر فضله علينا أن منحنا العزيمة والإصرار على استرداد الحق حتى استرددناه بالتضحيات ودم الشهداء، وفي تواضع ووطنية جارفة، قال في نفسه:

– حين فقدت ساقي؛ حزنت لأن ما قدمته كان أقل كثيراً مما قدمه زملاء ضحوا بأرواحهم، لكنني اليوم أحمد الله لأنني عشت لأرى الصورة كاملة، وأتمنى لكل مصري فاتته فرصة زيارة سيناء قبل نكسة ١٩٦٧ أن يزورها ويعرفها بعد نصر ١٩٧٣. فرحتى اليوم بزيارة سيناء تعدل فرحة الفاتح عمرو بن العاص حين وطأتقدمه أرض سيناء، واعتبر أن اجتيازه لمدينة العريش عند المساء يعد عيداً، وقال لجنوده: المِساعيد، فاصبح ذلك إسماً للحى القابع فى غرب العريش: المساعيد.

كانت الفرحة بادية على وجه دسوقي وهو يبلغ خيرية بشرى توفر فرصة ذهبية لاستكمال سياحته في سيناء من خلال إعلان مركز الشباب عن رحلة إلى جنوب سيناء لمدة خمسة أيام باشتراك مدعم:

– الحمد لله إنه ما فاتش شهر على رجوعنا من العريش، وجت فرصة الرحلة دي. لا أحمل فيها همّ النوم ولا الأكل، وقالوا لنا في المركز إنهم حايأجَّرُولنا أتوبيس سياحي وحايرافقنا مرشد سياحي، عشان يشرح لنا المعالم المهمة اللي حانزورها.

وأبدت خيرية سعادتها ومشاركتها لزوجها في فرحته، ثم ترددت قليلاً قبل أن تسأله:

– أنا عارفة إن الرحلة المرة دي حاتبقى أريح بس يا ترى يضايقك لو قلت لك إني با أفضل إنك تسافر لوحدك عشان مانبقاش أنا والأولاد عبء عليك خصوصًا في المناطق الصعبة اللي في جنوب سيناء، وكمان حسن ما شاء الله بقى تقيل

على الشيل، وأهو برضه نوفَّر شوية، احنا لسه مافقناش من مصاريف الرحلة اللي فاتت؟

وانتهت المناقشة إلى سفر دسوقي منفردا، فأعد أوراقه وأقلامه، وقليل من الملابس المناسبة للحركة، وشمسية خفيفة إضافة لبعض البسكويتات حيث بدأ تحركه بالتجمع أمام مركز الشباب إلى أن وصل الأتوبيس، وصعد الجميع، وجلس كلٌّ في المقعد المخصص له، وراجع المشرف أسماء المشتركين، ثم تحرك الأتوبيس في اتجاه السويس.

في الرحلة السابقة هاجت الذكريات، وتأججت العاطفة حين رأى دسوقي نفسه على سطح نفس القناة التي عبرها من قبل مقاتلاً، أما هذه المرة، فقد وجد نفسه وقد هبطت به الحافلة حتى عبرت إلى سيناء من أسفل القناة عبر نفق الشهيد أحمد حمدي، فابتسم متمتماً:

- الحمد لله، القناة ماعدتش تفصل بينا وبين سينا، حاندخل سينا من فوقها – ومن تحتها – واتجه الأتوبيس جنوباً، وأشار المرشد إلى يسار الطريق معلناً الركاب بموقع النقطة الحصينة وبها المدفع الشهير الذي طالما أذاق المواقع المصريةومدينة السويس والمنشآت البترولية بالزيتية خسائر جسيمة حتى أسكته مقاتلونا الأبطال واستولوا عليه خلال حرب أكتوبر ..

وأشار المرشد إلى زيارة الموقع خلال رحلة العودة لمعرفة التفاصيل من المختصين بالقوات المسلحة. ثم زار الفوج عيون موسى التي قال فيها القرآن الكريم:(۞وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) "البقرة ٦٠".

ومرت الحافلة على قرية رأس سدر السياحية ثم المدينة البترولية أبورديس فتذكر ما استنزفته إسرائيل من بترولها وتعاقدها على أكبر حفار في العالم تعجلاً

في النهب، وتوجيه الزعيم جمال عبد الناصر للمخابرات العامة برصده، ومتابعة خط سيره وتدميره قبل الوصول إلى مصر، ونجاح المخابرات في ذلك.

وعلى مسافة مائة وسبعين كيلو متراً جنوب مدينة السويس، مر الأتوبيس بمدينة الطور عاصمة جنوب سيناء، ووصف المرشد مناخها الرائع صيفاً وشتاءً، وانتشار حدائق الفاكهة بها، وأن بها مطاراً وميناءً يستقبلان الطائرات والسفن الصغيرة والمتوسطة وذكرهم بأن الله أقسم :وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣).

وأنهت الرحلة مرحلة الذهاب على بعد ثلاثمائة وخمسين كيلو متراً من النفق بوصولها إلى مدينة شرم الشيخ السياحية، ذات المياه الصافية، والأسماك الملونة العجيبة، حيث قضوا ليلتهم في بيت الشباب .. وعند الظهر في اليوم التالي انتقلوا إلى مدينة دهب برمالها الذهبية البراقة ومياهها الشفافة، ومراكز الغطس والتزحلق على المياه ومخيم مدينتها السياحية ويضم ستين سريراً، ثم كانت نويبع على مسافة تسعين كيلو متراً منها حيث الميناء، والشاطئ الجميل، ومركز الغطس والتزحلق على الماء ومخيمها ذو المائتي سرير..

في رحلة العودة غيرت الرحلة مسارها لزيارة الأماكن المقدسة، وفي حرم دير سانت كاترين نزل الركاب والتفوا حول المرشد السياحي الذي أبهرهم بما أفاض فيه من معلومات مجمعة عن المنطقة، قال:

- مدينة سانت كاترين تقع على بعد ثلاثمائة وعشرين كيلو متراً من النفق، وتعلو هضبة ترتفع بحوالي ٢٥٠٠ متراً على سطح البحر وتعد مركزاً للسياحة الدينية في سيناء، وتشتهر بحدائق الفاكهة ووفرة المياه، وبها مطار يستقبل الطائرات المتوسطة والصغيرة، وبها فندق موتيل طاقته ثمانين سريراً، ومكان للضيافة طاقته ستة وتسعين سريراً .. وبالقرب منها أقيمت قرية سانت كاترين السياحية

في وادي الراحة بمواجهة دير سانت كاترين وعلى بعد كيلو متر واحد وتتكون القرية من مائة شاليه.

وعن دير سانت كاترين، استأنف المرشد أنه بني في القرن السادس الميلادي، ويرجع نسبه إلى ابنة أحد ولاة الإسكندرية التي اعتنقت المسيحية فعذبت عذاباً شديداً حتى استشهدت في سبيل دينها .. وللدير سور ضخم طوله خمسة وثمانين متراً وعرضه خمسة وسبعين ومتوسط ارتفاعه أحد عشر متراً، وقد بنيت داخل السور عدة كنائس صغيرة، وفي السور الشرقي مصعد يدوي كان يستخدم قديماً، وبالقرب من الدير يوجد وادي الراحة، وعن المعالم الأخرى ..أضاف المرشد فهي:

- **المسجد:**ويقع بجوار الدير غرب الكنيسة الكبرى، وقد تم بناؤه في العصر الفاطمي داخل سور الدير.
- **حمام فرعون:**مجموعة ينابيع كبريتية ساخنة تصل حرارتها إلى اثنتين وسبعين درجة مئوية عند المنبع.
- **مقام النبي هارون:**ويوجد في سهل الراحة بوادي فيران.
- **جبل سُورِيال:**وكان الناس يحجون إليه قبل ظهور الأديان.
- **جبل موسى:** في أعلى قمة لجبل صفصافة وهو سلسلة جبال تمتد لكيلو مترين اثنين.
- **معبد سرابيط الخادم:**بأعلى جبل صغير مستطيل الشكل شمال مدينة الطوروهو عبارة عن هيكل يحتوي على عدة كهوف أهمها:
- كهف الإلهة حتحور: بني هذا الكهف في عهد الملك سنفرو.
- كهف الإله سويدو إله الحرب.
- أثر النبي صالح ويقع عند نقطة اتصال وادي مرة مع وادي الشيخ وعلى بعد كيلو مترين يوجد قبر النبي صالح.
- وعن القلاع الموجودة في جنوب سيناء عددها المرشد:

- قلعة سدر التي بناها صلاح الدين الأيوبي.
- قلعة نويبع وبناها الأتراك في القرن السادس عشر.
- قلعة الطور بناها السلطان سليم الأول عام ١٥٢٠ ميلادية.

سجل دسوقي كل ما رأى وكل ما سمع بدقة متناهية، وعلى الطريق الطويل في اتجاه النقطة الحصينة ونفق الشهيد أحمد حمدي وانتهاء بالقاهرة، أخذ يستعيد الصورة، ويستجمع الأفكار ويستنبط الحكم حول سيناء، تذكر ما ورد في كتاب محمد رسول الله والذين معه :كان للإله سين مكانة سامية عند العرب أبناء سام، وقد رفعوا شأنه أينما حلوا؛ عبدوه في بابل، وقدسوه في أور وحارات، واقاموا له معبدا هائلا في سيناء، وكانت تسمى سين تبركاً باسمه .. ثم فتح المصحف وقرأ الآيات من ٩-١٢ سورة طه: وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١)إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢).

انتفض من هول التراكم الروحاني المذهل؛ هذه الأرض التي تجلى الله فيها، هذه الأرض التي عبرها إبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، والتي أمر الله نبيه موسى بخلع نعليه لقدسية واديها طوى، ومرت عبر شاطئها العائلة المقدسة؛ مريم البتول وعيسى عليه السلام ومعهما ابن عمها يوسف النجار، وعبرتها جيوش الصحابة في صدر الإسلام فاتحين ..وروترمالها دماء الشهداء منذ مطاردة أحمس للهكسوس وحتى حروب ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣ ما كل هذا العبق؟ لن نتركها تفارقنا من جديد ..

تذكر قصة العربي الذي سئل عن أي أبنائه يحب أكثر وأجاب: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يبرأ، والغائب حتى يعود ..وسيناء كانت الإبن الصغير لأننا تركناها بلا تنمية، والمريض لأننا لم نضخ فيها دماء الحياة، والغائب بحكم تفريطنا

وتسليمنا بحدود اصطنعها الاستعمار، وأمَّنا عليها حتى كنا نحصل الجمارك على العائد منها في القنطرة. سيناء لها حق علينا، نضمها ونحتضنها ونحميها ونقدم لها المزيد من التضحيات.

تمرُ السنون، ويشب الأطفال عن الطوق، ودسوقي على حاله، في حالة توحد مع سيناء حتى صارت زوجته نسخة مكررة منه، وحفظ أولاده عن ظهر قلب كل ما يخص سيناء، ومهما كانت المعلومة بشأنها؛ تاريخية، عسكرية، اقتصادية، سياحية أو اجتماعية، وضاعف التصاقهم بها ترددهم مرتين على الأقل في كل عام على الشقة التي تملكها الوالد في المساعيد بالعريش بالتقسيط عن طريق بنك التعمير والإسكان.

تزوجت عفاف من أحد أقربائها، وعاشت في الإسماعيلية، فمثلت شقتها وثبة في الطريق إلى العريش، كما رافقت مع زوجها – في سيارتهما –والدها ووالدتها وشقيقها حسن الذي حصل على دبلوم صناعي تخصص نسيج في زمن انكمشت فيه الصناعة وأغلقت معظم الشركات أبوابها، فتضاءلت فرص التعيين، وعبثا حاول حسن، ونقب في كل المحافظات، لكنه لم يعثر على فرصة للعمل رغم إعفائه من الخدمة العسكرية كونه وحيد والديه، ورغم أن والده من مصابي العمليات الحربية.

لم يكن لحسن مجال في أي حديث إلا فيما يخص العمل، وتعذر عثوره على وظيفة، حتى نصحه صديق طفولته فؤاد بأن يحاول التدريب على إحدى المعدات الثقيلة: لودر – بلدوزر أو هراس أو جريدر، فشركات المقاولات دائمة الاحتياج لهذه التخصصات، وهي تدفع لأصحابها أجوراً عالية .. اقتنع حسن بالفكرة –ربما لأنه لم يجد أمامه بديلاً لها – وأمضى ثلاثة شهور في التدريب أصبح بعدها سائق لودر على درجة كافية من الكفاءة، فقرر عرض خبرته على المقاولين الذين يعرف أسماءهم أو من خلال الإعلانات في الصحف.

ذات مساء تجمعت الأسرة حول التلفاز تتابع برنامجاً من برامج الـ "توك شو" فإذا بلقاء مع نائب رئيس الهيئة الهندسية للقوات المسلحة المشرف على تنفيذ مشروع قناة السويس الجديدة يطلب من أي شركة مقاولات تريد التعاقد للعمل في المشروع التقدم فوراً وسيسند لها عملاً .. ويطلب من أي سائق معدة يرغب في العمل التقدم لاستلام عمل في نفس اليوم.

قفز الأب من مكانه، وكاد توازنه يختل بدون العكاز لولا احتضان الابن له، وصاحا معاً في فرحة وسعادة، وكأنما أمطرت السماء عليهما ذهباً وفضة:

- الله أكبر ..فرجت.وكمان في قناة السويس؟

توجه دسوقي إلى ابنه حسن:

- قدامك عشر شهور يا حسن مش عايزك تسيب الموقع وتنزل أجازة.

صاحت الأم بفزع:

- حرام عليك يا دسوقي.عايزني أقعد عشر شهور ما اشوفش ابني الوحيد؟

ورد الأب مطمئناً:

- مين اللي قال لك كده يا ولية؟ احنا مش حا نفوِّت شهر من غير ما نروح له ونشوفه ونشوف المصريين اللي بيكملوا الحلم اللي حاربنا من أربعين سنة عشانه.

مضى حسن وتسلم العمل، وأبدى رؤساؤه رضًا كبيرًا عنه فقد كان يعمل بدءً من الشروق إلى ما بعد الغروب يومياً وبدون أجازات أو راحات .. وتكررت زيارات الأب مرة مصطحباً الأم ومرات منفرداً .. وبعد مضي شهور واقتراب الهدف من التحقيق وخلال زيارة دسوقي لابنه طلب منه زيارة القاهرة في أجازة ولو ليوم واحد.

اندهش الإبن، وسأل والده:

- خير يا بابا! ماما تعبانة؟ ولا عفاف عندها مشكلة؟ ولا ...

وقاطعه الأب قائلا:

- فال الله ولا فالك يا حسن .السم في اللسان، كلنا بخير .احنا عايزينك تنزل تشوف العروسة اللي اخترناهالك، وإن عجبتك نقرا فاتحة ولا نعمل خطوبة .مش ربنا أكرمك ولقيت عمل؟ وبعد ما يخلص المشروع حايبقى فيه بدل الوظيفة ألف، وعشر تلاف وظيفة في المشاريع اللي حاتتعمل في المنطقة، وفي سينا كلها.
- أيوه يا بابا، بس الاستعجال أوي ليه؟
- استعجال؟ دا انت عديت التلاتين سنة، واللي أخرنا الشديد القوي، والحمد لله، فرجت ومش ناقص غير اختيار العروسة.حاتتزل امتى؟
- خلاص يا بابا حا ارتب، وقبل ما أنزل بيومين حا ابلغكم ..

عاد الأب، وبعدها بأيام، وخلال الأجازة القصيرة التي حصل عليها حسن، أعجبته العروس وتقدمت الأسرتان خطوات عن المخطط فقد تم عقد القران في جلسة عائلية، بعد أن طرح حسن شرطا لاقى قبول العروس وأسرتها، ورضا وسعادة من والديه:

- أنا لازم أوضح حاجة قبل ما نرتبط.. أنا إذا سمح لي الوالد حاعيش في شقة العريش وحا اقضي بقية عمري هناك ..

عاد حسن إلى عمله، واجتهد والده في إنهاء ترتيبات طويلة ومكلفة تطلبت سفرتان للعريش، ومجموعة قروض لإعداد الأثاث وتجهيز شقة الزوجية، وكان متعجلا إلى درجة دفعت خيرية لسؤاله عن كل هذه العجلة، فأجابها في رومانسية دمعت معها عيناه:

- يا خيرية، لو احنا اللي بنرتب حياتنا زي ما احنا عايزين، ماكانش ممكن نقدر نحقق عُشر اللي ربنا كتبه لنا.قناة السويس الجديدة حاتحتفل مصر وأخواتها.

وحبايبها بافتتاحها صباح يوم ثمانية أغسطس، وإن شاء الله تفرح عيلتنا، ونسايبنا بفرح حسن في شقته في المساعيد بالليل في نفس اليوم عشان يكون الصبح عيد، والمسا عيد ..

***

ساعة الصفر

القمة عالية وحاكمة، ولكن الطبيعة فى اليمن لا تسمح بإطلاق هذه الصفة، لأن الجبال كثيرة، والقمم عديدة، ونادراً ما تكون إحداها عزيزة المنال على القمم الأخرى، ولو ابتعدت عنها، فكل قمة تعلوها أخرى، كما أن البعد بين جبل وآخر على الأرض لا يؤمنه من نيران الأسلحة فالمسافة فى الجو خط مستقيم يقل كثيراً عن المسافة على الأرض بتعاريجها وانحناءتها وعدم استوائها.

وعلى الميول الخلفية للقمة دشم لإيواء القادة والجنود، ومخازن الذخيرة والتعيينات والمهمات والوقود، ومدقات للسير، وبعضها صالح لسير السيارات العسكرية المجهزة بصندوق نقل للسرعات يمكنها من ذلك، أما فى الأعلى فمتاريس أقامها الجنود برص الحجارة والصخور الصلبة على هيئة سور متصل تتخلله (مزاغل)، أى فتحات لفوهات الأسلحة، أو مواقع مجهزة بالحجارة وشكائر الرمال لحماية المدافع الموجهة إلى المواقع المحتملة للمتمردين.

قبل آخر ضوء بقليل، أى قبل المغرب الذى يمثل غروب الشمس وتلاشى ضوء النهار، وهو توقيت تصطف فيه القوة بالكامل ترقب كل ما حولها – وكذلك تفعل فى أول ضوء –وهى خلف أسلحتها جاهزة للتعامل الفورى حين تصدر أوامر القادة ..وفى مكتب (دشمة القائد)، وبناء على استدعائه – دخل النقيب محمد مغاورى فأدى التحية العسكرية، وخلال رد التحية عاجله القائد:

- لو كلفتك بالقيام بإغارة على موقع حصين للمتمردين، تقدر تجهز نفسك والقوة اللازمة خلال قد إيه يامحمد.
- خلال ثلاث ساعات يا افندم.

- انت مستعجل فى الرد ليه؟ إنت عرفت المهمة، ولا عدد الجنود اللازم أو الإستعدادت المطلوبة؟ كان لازم يامحمد تسألنى عن المهمة بالتفصيل قبل ما ترد على سؤالى.مظبوط؟
- مظبوط يا افندم. بس أنا قدرت المدة على أساس إختيار القوة والتجهيزات المعتادة.
- طيب . تعالى يا محمد.

أمسكه من ذراعه، وصعدا إلى أعلى القمة، وفى نقطة مراقبة مجهزة، أشار إلى الجبل المواجه والمتشح بالسواد نظراً لأن صخوره داكنة، وبدا من خلال الجو الغائم أكثر سواداً.

- الجبل اللى قدامنا دا بنسميه فى خرايطنا؛ الجبل الأسود. عايزك يامحمد تبص عليه فى التلسكوب وتدقق فى الثلث العلوى منه حاتلاقى فيه كهوف ومغارات فى مواجهتنا.شايفها؟
- أيوه يافندم فتحاتها واضحة وفيها كهف واضح إن فتحته واسعة جداً عن التانيين.
- مضبوط يامحمد. تعالى بقى نرجع المكتب.

فى طريقهما إلى المكتب حدد له القائد العناصر الأساسية للمهمة:

- إنت حاتختار القوة المناسبة للقيام بعملية مزدوجة: تدمير المدفع ٧٥ مم اللى بيخفوه فى الكهف اللى انت حددته على إنه أكبر فتحة، وبيطلعوه يضربوا علينا طلقتين، ويرجعوه فى الكهف، وفى الكهف اللى يمينه من ناحيتنا يعنى جهة الشرق، مركز قيادة صغير فيه أحد القادة المهمين للمتمردين، لو قدرنا نأسره يبقى كويس .. وإن ما أمكنش يبقى نقتله هو واللى معاه.
- تمام ياافندم.
- طيب تقترح تشكيل القوة إزاى يامحمد؟

- أنا ممكن آخد معايا ضابط الإستطلاع الملازم نادر كقائد ثانى، ومعانا عشر جنود مسلحين بالبنادق الآلية وجندى حامل قاذف لهب، وجندى إشارة معاه جهاز لاسلكى.
- طيب مبدئياً حاتختار الجنود ومش لازم من سريتك، المهم يكونوا قناصين، وأعصابهم سليمة وبنيانهم متين، وتعرض على أسماءهم بكرة الصبح، وتجيب معاك الملازم نادر وتيجوا مكتبى الساعة ١٢ الظهر علشان التلقين بأمر القتال وتعرف الجنود إنهم حاينفذوا عملية معاك من غير تفاصيل لغاية ما تلقنهم قبل التنفيذ مباشرة، ومبدئياً العملية بكرة بالليل وساعة (س) حاتكون ساعة (٢٢٠٠)والقوة اللى حاتكون معاك تكون فى الراحة الإجبارية من الساعة (١٤٠٠)للساعة (١٨٠٠)، وياخدوا وجبة خفيفة قبل التحرك بساعتين.ياللا يا محمد جهز نفسك، واشوفك بكره انت ونادر .مع السلامة.

وأدى النقيب التحية وانصرف حيث بدأ على الفور فى تسجيل كل المعلومات والملاحظات واختيار أفراد القوة وإعداد متطلبات العملية مثل الذخيرة وأدوات التمويه مثل السناج لطلاء، وجوه الأفراد ليخفى سواده معالمها فى حلكة الليل، وطلاء الأسلحة لإطفاء بريق معادنها، ومراجعة أقواس نيران أسلحة الموقع لتوفير الحماية للقوة أثناء العملية، وطبنجات الإشارة وطلقاتها، وعدد من القنابل اليدوية الهجومية، والتأكد من جهاز الإشارة الذى سيصحبه وجاهزية بطاريته، وصرف تعيين القتال .. وغير ذلك.

وفى الصباح التالى اصطحب معه الملازم نادر واتجها إلى مكتب القائد الذى استقبلهما وقد ثبت على حامل، خريطة للموقع وأصدر لهما أمر قتال مختصراً اشتمل على وصف الهدف والعدو وقواتنا التى ستقوم بالتنفيذ والأرض، والمناخ المتوقع، ودرجة الرؤية، وشدد عليهما ألا يكونا متقاربين فى أى لحظة من لحظات العملية لعدم تعرضهما للخطر معاً وتصبح القوة بلا قائد، كما استمع إلى

اقتراح النقيب محمد بتفاصيل خطته وأساسها أنه سيقوم ومعه مجموعة تنفيذ الإقتحام فى ستر قوة بقيادة الملازم نادر، وكذلك تتولى مجموعة الستر تغطية انسحاب مجموعة التنفيذ ومعها الأسير أو الأسرى التى تتمكن القوة من أسرهم.

وبعد تسلم أمر القتال رافق الملازم نادر قائد العملية النقيب محمد حيث جمعوا الجنود الذين صدق لهم القائد بإصطحابهم وأبلغوهم بالإجراءات الإدارية التى يلتزمون بها قبل التجمع فىموقع تحدد لهم فى تمام الساعة التاسعة (٢١٠٠)ومعهم الأسلحة والمعدات والمهمات التى حددت لهم، لشرح المهمة والتحرك.

كان الظلام حالكاً - لكن النقيب محمد كان قد هضم خط السير كما كان الملازم نادر يحفظ المنطقة ودروبها ومدقاتها .قاما بالتفتيش على القوة والتأكد من كل التفاصيل، ومن تثبيت الأسلحة والمعدات على أجساد الجنود حتى لا تصدر عنها أصوات تنبه العدو، كما ارتدى أفراد القوة أحذية خفيفة (كاوتش) لعدم إصدار أصوات، رغم قسوة الصخور النارية التى سيسيرون عليها على اقدامهم.

فى العاشرة والنصف، سمع الجنود ومعهم القادة فى موقعهم صوت انفجار ووهج شديد تتالت بعده الإنفجارات فاستنتج القائد تدمير المدفع وبعده انفجرت صناديق الذخيرة، ثم سمعت دفعات من طلقات البنادق،وتلقى القائد إشارة لاسلكية بعد كسر الصمت اللاسلكى - ما يعنى انتهاء العملية طبقاً لتعليماته السابقة - وأفادت الإشارة بتدمير المدفع والذخيرة وقتل جميع الموجودين بالكهف المجاور بإستخدام قاذف اللهب لتعذر أسرهم لكثافة النيران التى دافعوا بها عن أنفسهم من داخل الكهف، وأن القوة فى سبيلها للإنسحاب.

فرح الجميع وهللوا حيث كان هذا المدفع يسبب لهم إزعاجا متكرراً، وانتظروا وصول الأبطال الذين قاموا بالعملية، والذين أطلقوا طلقة إشارة للتعارف، فرد الموقع بطلقة تفيد استقبالهم بلا معارضة .. وعادت القوة حيث استقبلهم الزملاء

بحفاوة غامرة وقبلات حارة .. لكن قائد العملية لم يصل، وأعطى الملازم نادر تماماً بالعملية بينما فاضت عيونه بالدمع وهو يقول:

- تمام يا افندم. تم تنفيذ العملية طبقاً لأمر القتال بنجاح، والقوة بالكامل لا توجد بها خسائر ما عدا قائد العملية النقيب محمد؛ مفقود يا افندم.

استمع القائد إلى تفاصيل العملية التى نجحت فى تدمير المدفع، والقضاء على المتمردين الذين تواجدوا فى الكهف المجاور، وأثناء انسحاب القوة تم فتح النيران عليهم من شخصين تصادف وجودهما فى كهف ثالث. حددت القوة مصدر النيران، وأمرهم النقيب محمد بالتعامل معهما، وتم إسكات أحدهما، بينما استمر المصدر الثانى فى إطلاق النيران - وقسمت القوة من جديد حيث إنسحب نصفها تحت ستر نيران النصف الآخر، ثم تبادلوا الأدوار حتى هبطوا إلى السهل أسفل الجبل وتمم النقيب محمد على القوة، وأمر باستمرار الإنسحاب فى جنح الظلام، وسمعوا صوت دفعة من النيران لم يعيروها اهتماماً، ولكنهم عندما هموا بتسلق الجبل الذى تحتله وحدتهم، اكتشفوا عدم وجود قائد القوة معهم.

حدد قائد الوحدة المنطقة التى فقد فيها قائد العملية وتوقع أن يكون قد أصيب فيها وعجز عن مواصلة المسير، أو أن يكون قد استشهد، فأمر بتشكيل قوة جديدة، صمم الملازم نادر على قيادتها رغم الإجهاد، والشد العصبى، لمعرفته بالطريق الذى سلكته القوة، و ربما سقط فيهالنقيب محمد، وقضت الخطة بإطلاق القوة لطلقة إشارة عندما تصبح فى حاجة لإضاءة المنطقة حيث يتولى الهاون إطلاق طلقتى إضاءة.

عثرت القوةعلى النقيب محمد راقداً فى ستر صخرة تحجب رصاصات المتمرد المتحصن بالكهف وسط بركة دماء، أدى نزفها إلى إغماءة أزعجهم ظنهم أنها وفاة إلى أن اطمأن الملازم نادر إلى وجود النبض - علامة الحياة - فأمر بسرعة حمله وتثبيت مجموعة لستر الإنسحاب، حتى وصلوا إلى الموقع، وانطلقت عربة

الإسعاف بقائد العملية إلى المستشفى العسكرى حيث تم إستخراج الرصاصة، ونقل الدم، وغيرهما من العمليات الجراحية والتمريض والرعاية.

بعد أسبوع كان الموقع يحتفل بعودة النقيب البطل إلى وحدته حيث تأثر بدفء المشاعر ودموع الفرح فى عيون الضباط والجنود؛ فأحس أنه وسط أهله، وشعر أن هذه الحجارة القاسية من حوله، والدشم العشوائية التى تأويهم، بيته الحبيب.

***

عائلة المصري(*)

(1)

في فناء محطة مصر للسكك الحديدية بميدان باب الحديد، تجمعت وحدة المشاه التي نقلتها لوريات الجيش، لإعطاء التمام بالقوة المتحركة بينما سرح الملازم أول فرج المصري – أحد ضباط الوحدة – للحظات حين وقع بصره الممتد في اتجاه الأفق من خلال وضع "انتباه" على تمثال نهضة مصر الرابض بالميدان؛ امرأة ريفية فتية؛ منتصبة القامة، ممشوقة الهامة، مرفوعة الرأس تمثل مصر في كبرياء وأنفة، وإلى جوارها أسدٌ يمثل القوة والشمم، فتجسدت له أهداف المهمة التي تتحرك وحدته لأدائها في فلسطين.

تدفقت شحنة من الحماسة والثقة في دمائه ..واكتمل التمام ..وتحرك الطابور إلى داخل المحطة حيث كان القطار الحربي (المخصوص) ينتظرهم، فركب الجميع في نظام وانضباط. واطمأن القادة على تمام ركوب الأفراد .. وتحرك القطار إلى العريش، كوثبة تتولى بعدها قيادة المنطقة الشرقية، إعادة التنظيم والتدعيم طبقاً للمهام قبل التحرك وعبور الحدود في اتجاه ميدان القتال لملاقاة العصابات الصهيونية التي أعلنت قبلها بيوم واحد تحولها إلى دولة.

كان فرج المصري ضمن ثلاثين ضابطاً في الوحدة أقربهم إلى نفسه اليوزباشي إبراهيم شعلان، الأقدم بدفعة واحدة وزميل الكلية الحربية، والصاغ فريد تاوضروس رئيس عمليات الوحدة ..وكانوا جميعاً يتحرقون شوقاً لملاقاة الصهاينة، تملؤهم الثقة، ويسلحهم الإيمان بعدالة القضية ويثقون لذلك في نصر الله.

(*) القصة حازت على جائزة إدارة الشئون المعنوية للقوات المسلحة.

مضت الأيام والأسابيع، ثم الشهور ثقيلة في مضيها مع متابعة العائلة أخبار القتال في مجمله، دون ما خبر عن فرج؛ خيراً أو شراً ..

وكعادتها؛ التقت الأسرة بكامل أفرادها، قبيل المغرب تحت المذياع يتلمسون أخبار الجيش في فلسطين . كان الأب الحاج سعيد المصري يشرح لزوجته الحاجة خديجة، وابنته زهرة وعلية زوجة فرج، وابنه الأصغر ياسين منطقة سيناء وفلسطين مسترجعاً ذكرياته حين أدى فريضة الحج بالقطار قبلها بعشر سنوات ويطمئنهم لتوقف القتال أربعة أسابيع في الهدنة الأولى يوم الحادي عشر من يونيو ١٩٤٨. وحتى حين استؤنف القتال، كان يقول لهم:

- إطَّمنوا يا اولاد إحنا جيشنا طول عمره منصور على أعاديه ..دا أبطالنا في الشهر الي فات قطعوا ع اليهود الطريق بين النقب وتل أبيب، والطوبجية الرجالة ضربوا مستعمراتهم بالمدفعية وأرض فلسطين اللى في حذا حدودنا بعد رفح كلها تحت سيطرة جيشنا.

كان يقول ذلك ويكرره، لكن داخله كان مضطرباً يملؤه القلق على ابنه، وكانت الأسرة تستمع إليه وتصدقه لكن السؤال المستقر في نفوسهم:

- هذا رائع، ولكن ماذا عن فرج؟

ذات مساء من بدايات العام الجديد، طرق الباب، وفتحته زهرة لتجد ضابطاً يقف من خلفه ويلقي عليها السلام ثم يسألها عن والدها الحاج سعيد ..

- موجود. لحظة واحدة ..

وتنادي والدها الذي يتحرك في اتجاه الباب، وتقع عيناه على الضابط الواقف أمامه فيدق قلبه بشدة، ويرحب به ويدعوه للدخول، وفي عينيه دعوة للعجلة في إبلاغ رسالته:

- اتفضل يا ابني ..خير؟ !

ودخل الضابط بينما تعجل الجواب لبث الطمأنينة في قلب الأب القلق مقدماً نفسه:

أنا الصاغ فريد تاوضروس زميل فرج، خير يا عمي، فرج بخير وفي كامل الصحة، وطلب مني أعدِّي عليكم علشان أطَّمنكم ..

- وهو ماجاش معاك ليه يا ابني؟
- ماهو طول فترة العمليات، ماكانش فيه أجازات يا عمي، فلما قبلنا وقف العلميات ودخلنا في مفاوضات الهدنة، انتظمت الأجازات على دفعات بنظام الأقدمية والحالة الاجتماعية وكده، وفرج حاينزل في الدفعة الثالثة يعني بعد أسبوع ولا عشر أيام، وانا عشان نزلت على عجل مرتبط بالدفعة مالحقش يكتب لكم جواب .لكن إبراهيم شعلان نازل بعدي علطول وإن شاء الله يجيب لكم جواب بخطه تطمِّنوا عليه ..
- طيب طمِّني يا ابني على الموقف، وعلى زمايلكم ما هو كلهم ولادنا ..
- والله يا عمي احنا علّمنا الصهاينة دروس في بداية العمليات، لكن اكتشفنا اننا مش بنحاربهم لوحدهم واكتشفنا كمان أن مش كلنا بنحاربهم ..وأما ييجي فرج إن شاء الله يحكيلكم التفاصيل.

كانت علية قد أعدت الشاي و وقفت إلى جوار باب غرفة الجلوس حتى يتم ياسين استبدال ملابسه ويحمل عنها الصينية، ولعلها تسمع من الزائر ما يطمئن قلبها على زوجها ولو بذكر اسمه..

وحين هم الصاغ فريد بالوقوف مستأذنا في الانصراف أشار له الحاج سعيد بالجلوس قائلاً:

- لا يا ابني ما يصحش – كباية شاي سريعة ..ولا انت فاكرنا يهود.

ودخل ياسين ووضع الصينية على ترابيزة صغيرة عليها مفرش مشغول باليد، وجلس الصاغ فريد فشرب نصف الكوب في عجالة واستأذن من جديد فانصرف، بعد أن ترك شحنة أمل وطمأنينة، كانت الأسرة في أمس الحاجة إليها.

وما هي إلا أيام؛ حتى كانت زيارة مماثلة من الزميل والصديق اليوزباشي إبراهيم شعلان الذي حمل خطاباً باسم الوالد، وحين فتحه وجد خطاباً آخر من داخله باسم الزوجه علية، وانصرف الضيف، وقرأ كل منهما خطابه، وتبادلت الأسرة بكامل هيئتها الحديث والنقاش في جو أكثر ارتياحاً ..

ومرت أيام أخرى، فكان لقاء الأسرة بعزيزها؛ حضر فرج، واصطفت الأسرة في طابور تتضح من رؤيته الأقدمية، فالوالد بدأ في احتضان ولده وبعده كانت الوالدة ثم الشقيقة، فالشقيق ومن خلفه الزوجة التي لم تكن تملك انتزاع الدور ..وحين طالت لحظات العناق، تعجل، يس الجميع:

- ايه يا جماعة الطابور واقف والدور حايوصلنا بالليل ..يا للاحضن سريع وبعدين فيه دور ثاني ..

ضحك الجميع ورووا أشواقهم بالعناق والقبلات والنظرات الحانية، ولاحظ الأب - بخبرة السنين -أن الزوجة تتلهف إلى لحظات تنفرد فيها بزوجها فبادر الجميع قائلاً:

- بس يا ولاد، كفاية أسئلة وتحقيقات، سيبوا فرج يقوم ياخد حمام وينام له ساعتين بعد السفر الطويل، ونسهر مع بعض بالليل، نسمع منه من ساعة ما سابنا، لحد ما رجع لنا بالسلامة.

في المساء التأم اجتماع الأسرة، وتعجل الجميع توجيه الأسئلة إلى فرج الذي اقترح عليهم أن يقص عليهم ما يراه متاحاً ويهمهم سماعه، ثم يسأل من يريد عما أغفل ذكره.

قال فرج:

- واحنا في القطر في طريقنا للعريش قرينا الفاتحة والشهادتين ووصينا بعض على إن اللى يرجع مننا يراعي مصالح الي ما يرجعش ويكون ابن بديل لعيلته ..ولما وصلنا محطة الأبطال في العريش، انضمت علينا وحدات من مدفعية الميدان ومدافع الماكينة والمدرعات وعناصر مهندسين عسكريين .. وغيره ..وغيره ..وتم تلقينًا بالمهمة وشرح ضرورة التعاون مع الجيوش العربية الي حاتشاركنا في القتال ..

في البداية عدينا رفح ودخلنا أرض فلسطين في غزة وقدرنا نقطع على اليهود الطريق بين النقب وتل أبيب والمدفعية وجهت ضربات للمستعمرات اليهودية في النقب ..وسيطر الجيش المصري على الجزء الجنوبي من دولتهم المزعومة بالكامل ..

بس بعض الجيوش العربية كانت لها ظروف أثرت علينا بالضرر وفاجئنا بشكل ما نتوقعوش، زي الجيش العراقي الي كان بيقول: "ماكو أوامر" يعني ما وصلتهمش أوامر، والجيش الأردني تحت قيادة الجنرال البريطاني جلوب اللي أصدر أوامره بإخلاء اللد والرمله وميناء أم الرشراش الفلسطيني ..وكمان المساعدات البريطانية والأمريكية والأمم المتحدة ..لغاية ما بدأت الهدنة الأولى في ١١/٦واستمرت أربع أسابيع وصلت فيها للصهاينة إمدادت كبيرة من الأسلحة الثقيلة والطيارات من تشيكوسلوفاكيا وأوروبا؛ الشرقية والغربية .. وانقلب الميزان لصالحهم، وبدأت العمليات من جديد من ٩ يوليو في حرب الأيام العشرة زي ما سموها لغاية مجلس الأمن ما فرض هدنة جديدة.

تابعت الأسرة السرد المركز، وتابعت نظرات فرج إلى المجهول كأنما كان يستعيد المناظر أو يستعرض الشريط الذي أمده بالتفاصيل ..واستمر فرج:

- وبدأت اسرائيل بعد ما أعادت ترتيب قواتها وطيرانها بالذات في عمليات جديدة في أواخر السنة وقدرت بالأسلحة المطورة إنها تطوق قواتنا وتفصل قواعدنا الرئيسية في غزة عن خان يونس ورفح، واخترقت شبه جزيرة سيناء واستولوا على معظم النقب ..وقبلت الحكومة وقف اطلاق النار في نهاية الأسبوع الأول من السنة الجديدة وحصلت مفاوضات عسكرية لغاية ما تم توقيع اتفاقية الهدنة في رودس ..

وتساءل الحاج سعيد في لهفة وقلق:

- وإيه الأوضاع في سينا دلوقت يا ابني؟
- لا سينا بخير، دي أرض مباركة بتحميها إرادة ربنا قبل كل شيء، وبعدين احنا لنا فيها قوات كفاية، من رفح للقصيمة للكونتيلة لراس النقب، والقبائل هناك بيحبوا بلدهم ويعشقوا ترابها، وبينسقوا معانا كل التفاصيل ما تخافش على سينا يا حاج.

إستمرت الحفاوة ..والحوارات .. وصواني ما يحب فرج تناوله من أصناف الطعام من يد والدته الحاجة خديجة .. وفضول شقيقة ياسين وأسئلته عن كل التفاصيل .. وإجابات فرج عن كل ما تجوز الإجابة عنه ..حتى انتهت أيام الأجازة سريعة ككل صور السعادة .. وسلم فرج على الجميع مودعا بين الدعوات المخلصة وغادر عائداً إلى وحدته ..

في وحدته بالقصيمة كانت أولى خطوات تشكيل تنظيم الضباط الأحرار الذي انضم إليه فرج .. ومرت الأيام .. ومضت أيام أخرى؛ تغيرت خلالها كثير من الأمور، إذ رزق فرج بابنه محمد في ١٩٤٩ ..وقامت ثورة يوليو عام ١٩٥٢، ثم توفي والده الحاج سعيد في بداية العام ١٩٥٣، كما تم تجنيد ياسين في نفس

الفترة، فأصبح في المنزل صاغ وجندي مجند ..حتى انتهت فترة تجنيد ياسين في نهاية العام ١٩٥٤.

في السادس والعشرين من يوليو عام ١٩٥٦أمم الزعيم جمال عبد الناصر قناة السويس ..وغضب الغرب وشهد العالم تحركات متسارعة، وتجمعت نذر الحرب ..وتم استدعاء يس لخدمة الاحتياط في سبتمبر.

(2)

فور انتهاء إجراءات التسجيل واستلام المهمات وما إلى ذلك، تم ترحيل ياسين لينضم إلى إحدى وحدات الصاعقة التي خدم فيها وحصل على دورتها التدريبية خلال خدمته الإلزامية ..وسرعان ما تحركت الوحدة إلى جنوب سيناء لتأمين منطقة شرم الشيخ .. ومع غياب الرشد السياسي، وطفح الأحقاد الاستعمارية ..قرعت طبول الحرب، واستعدت القوات المسلحة لصد العدوان عن ارض مصر ..وسمحت الظروف لياسين بالتأمل في طبيعة سيناء فنظر إلى البحر فإذا مياهه مغرقة وأمواجه كاسحة ..غول يبتلع كل من تحداه، وتذكر أن مياه الخليج الذي يقف في حراسته هي التي أغرقت فرعون وهامان، ثم ارتد بعده إلى الجبل فإذا جبروت آخر ضرب الله به المثل في الصمود والتحمل ونظر إلى الصحراء الواسعة من خلف هذا وذاك فتذكر التيه الذي فرض على بني إسرائيل .. أيُّ أرض هذه التي يحتويها ذلك المثلث المقلوب؟ وأي عبقرية في موقعه بين القارات؟ ومن هو الإنسان الذي يتحدى هذه المنطقة: سيناء؟

ومع نهاية أكتوبر كان الهجوم المتزامن؛ من بريطانيا وفرنسا على منطقة القناة، ومن إسرائيل على شبه جزيرة سيناء، وأدركت القيادة السياسية الكمين الذي استهدف الإنفراد بقواتنا في سيناء للقضاء عليها فصدرت الأوامر إليها بالتخلص من كل ما تحمله والإنسحاب إلى غرب القناة والمشاركة في صد العدوان الصليبي الجديد.

ومع قلق الأسرة وغياب المعلومات، وتضارب ما تيسر منها، تكررت محاولات البكباشي فرج عن تلمس أي معلومات عن شقيقه وتلخص ما توصل إليه في تخلف عدد من أفراد الوحدة ومن ضمنهم ياسين وتعذر الاتصال بهم أو معرفة شيء عنهم وأنهم يعتبرون في عداد المفقودين.

وانسحب المعتدون؛ الإنجليز والفرنسيون بعد ثمانية أسابيع، والصهاينة بعد أربعة شهور، وأخطرت المخابرات الحربية البكباشي فرج بأن شقيقه حي وأنه سيصل إلى أسرته خلال أيام ..وعاد ياسين ..والتأمت الأسرة في مثل مشهد استقبال فرج منذ ثمانية أعوام مع تغيرات فرضها القدر؛ فقد غاب الأب الحاج سعيد بالوفاة، والشقيقة زهرة بسبب الزواج والإقامة في الأقصر، مع تواجد عضو كان رضيعاً في اللقاء الأول وهو محمد فرج المصري (٩ سنوات) وشقيقته سوسن (٧سنوات).

احتفل الجميع .. واختلطت الابتسامات بالدموع، ثم سيطر الفضول؛ الأم تتعجل الإطمئنان إلى عدم تعرض ولدها لأذى لم تتبينه بالرؤية، والشقيق يتوق لاستقاء معلومات عسكرية من خلال تجربة شقيقه الشخصية، والصغير محمد يريد سماع قصة بطولة عن عمه ربما فاخر بها زملاءه في المدرسة، إضافة لبطولة والده التي ما فتئ يترنم بها.

واختفت زوجة الأخ علية لحظات، فلم تغب عن فطنتها أن العائد، ليس عائداً من فندق أو منتجع وأنه بالضرورة في حاجة إلى وجبة ساخنة وكوب من الشاي ..فعادت بعد لحظات تحمل ما أعدته على عجل، فباركتها الأم وشكرت صنيعها.

- ربنا يكرمك يا علية ..أنا اتلهيت، وفرحتي خلتني ما افكرش أتحرك من جنب ياسين ..عايزه أشبع منه ..وما خدتش بالي أنه هو كمان عايز يشبع من الأكل اللي اتحرم منه شهور.

وعلق ياسين مبتسماً:

- طول عمرك يا علية ماتفوتكيش الواحدة .. أنا حاكل وأنا باحكي لكم ..

واعتدل في جلسته لكي تصبح صينية الطعام الموضوعة على ترابيزة صغيرة في متناوله .. وبدأ يمضغ أولى اللقيمات، وهو يفتتح القصة المثيرة:

- إنتو طبعا مش محتاجين أقول لكم الكلام اللي اتقال في الإذاعة، واللي اتنشر في الجرايد، لكن حابدأ من ساعة ما وصلنا أمر الانسحاب: القائد جمعنا وقال لنا:
- إحنا حاننسحب في شكل مجموعات صغيرة ماتلفتش النظر للطيران الإسرائيلي أو وحدات الاستطلاع. اللى مش حا يقدر يحافظ على سلاحه تحت أي ظرف، يتخلص منه بطريقة ما تسمحش للعدو انه يستفيد منه.

المهم؛ اتحركت أنا، واثنين من زمايلي على الطريق، لكن لاحظنا إن الطيران مركز الضرب على الطريق فبعدنا عنه ومشينا في الصحرا .. وفقدنا الاتجاه .بدل ما نمشي بحذا خليج السويس، انحرفنا شوية ناحية الشرق ..عشان كنا بنمشي بالليل ونستريح بالنهار في ستر صخرة ..شجرة .. اقتصدنا في استهلاكنا لتعيين القتال وفضيت زمازم الميه الي معانا، ولمحنا واحد من عرب سينا بعد تلات أيام ماشي ..نادينا عليه بعلو صوتنا وسالناه:

- إحنا فين؟

ورد علينا:

- الأول قولوا السلام عليكم .. والسلام هو اللي ناقص من الدنيا .. انتم في الأمان .. قريبين من دير سانت كاترين وجبل موسى .. كلموا ربكم زي ما كلمه سيدنا موسى واطلبو منه السلام والأمان والسلامة .. سينا أرض الأنبياء واللي يعتدي عليها في الآخر مغلوب.
- أكيد يا أخونا .. وإن شاء الله يتقبل منا، وياريت تدلنا على اتجاه السويس.

- ضحك العربي وحسينا أنه متعاطف معانا ونفسه يعمل حاجه ورد علينا:
- الأول حانروَّح .. ناكل ونشرب ميه وشاي .. ونستريح .. ونفكر مع بعض نعمل إيه .. انتم قدامكم للسويس أكتر من تلتميت كيلو .. واليهود بدأوا يِمشُّوا داوريات على الطرق وبالطوافات ..

ولما جه الليل صممنا نمشي .. ملينا الزمازم، ووصف لنا الطريق ومشينا في اتجاه ابو رديس وكلنا رهبه من الجبال . كانت عندنا العزيمة والقوة، لكن كنا حاسين إن قوة وإرادة الجبل والبحر أقوى من إرادتنا وهي اللي شجعتنا على تحدي الخوف والقلق، لأنها معانا وعارفه إن أحنا أصحابها وضد الصهاينة اللي عمرها ما حبتهم.

بالاختصار؛ قبل ما نوصل ابو رديس قابلنا عربي تاني اسمه سالم أبو سالم قابلنا بالأحضان وحلف يمين ما نمشي من عنده قبل اليهود ما يمشوا من سينا وضحكنا وسألناه:

- طيب ولو ما مشيوش؟

رد بصلابة وتصميم :

- ما ينفعش. لا يقدروا على الأرض ..ولا يقدروا علينا.

فقعدنا عنده تلات شهور ما نخرجش بالنهار لأي سبب، ويخرج معانا بالليل يعرفنا على بعض الأماكن اللي حواليه ..ونقعد تحت السما الزرقا بنجومها الصافية ونطلب من ربنا الحل القريب.

وعدِّت الأيام وطبعاً في مواقف تتحكي؛ زي حضور داورية للتفتيش وازاي كان سالم خبير في التعامل معاها والتمويه عليهم ..ولما اتعرض زميلي حفظي لقرصة تعبان وقلقنا عليه عشان بعدنا عن العمران وازاي في ثانية سالم شرط مكان اللدغة وشفط السم وبصقه .. وزي .. وزي .. حكايات نحكيها في أيام وشهور.

قام فرج وقال للجميع:

كفاية كدة انهاردة مش معقول يحكي أربع شهور. في يوم ..هاتولو كباية ينسون يشربها وينام كفايه عليه اللي شافه ..

وقام ياسين فانفرد في حجرته ..ونام في فراشه بينما حملق في سقف الغرفة، وسرح بعيداً كأنما كان يستكمل منفرداً تفاصيل القصة، غير مصدق أنه ينام في بيته وابتسم وهمس لنفسه:

- والله حاتوحشني لياليك يا سينا ..

(3)

دورة جديدة من الزمان في حياة عائلة المصري، فقد تخرج الملازم محمد فرج المصري من الكلية الحربية في أوائل العام ١٩٦٧قبل أن تتأزم الأمور بين مصر وإسرائيل على أثر ما تواتر من الأنباء حول حشودها في مواجهة سوريا وإعلان جمال عبد الناصر إغلاق مضيق تيران في وجه الملاحة الإسرائيلية ما يعني حرمانها من منفذها الوحيد على البحر الأحمر ووقف تعاملها مع إفريقيا وجنوب آسيا عن طريق ميناء إيلات ..

انضم الملازم محمد فرج المصري إلى إحدى فرق المشاه الميكانيكية تحت قيادة اللواء إبراهيم شعلان ..وما لبثت الفرقة أن صدرت لها الأوامر فعبرت قناة السويس إلى سيناء حيث تمركزت معظم وحداتها في منطقة شمال شرق سيناء المتقدمة في خط المواجهة مع إسرائيل ..أيام وبدأت إسرائيل عدوانها في الخامس من يونيو وتسببت الظروف السياسية والضغوط الدولية في انسحاب القوات انسحاباً غير منظم بعد تدمير معظم طائرات سلاح الطيران المصري ..

كانت الشمس دليلاً لمحمد في عودته، فقد كانت وجهته قناة السويس في الغرب وبالتالي فقد كان يسير في اتجاه الشمس بعد الظهر وفي عكس اتجاهها في بداية النهار ..أعياه السير، وأرهقه الجوع والعطش لكن الروح الإنهزامية كانت أبعد

ما يكون عن نفسه، رغم كل الدمار الذي مر عليه، كانت لديه قناعة – ربما متوارثة – أن أرض الأنبياء التي مر عليها إبراهيم الخليل ويعقوب ويوسف وموسى والمسيح عليهم وعلى نبينا السلام ستلفظ وجود الصهاينة، ورمال سينا ستلهب أقدامهم ..

استنكر زملاء محمد الثلاثة في رحلة المسير، ابتسامته الدائمة، فلم يكن هناك أي دافع للابتسام؛ كانت الظروف التي حرمتهم من القتال قاسية على نفوسهم، وكانت الشمس محرقة نهاراً، والبرودة – في ظل الجوع والجهد – ليلا تلسعهم وهم يستلقون على الرمال المبتلة والندى الذي يشبع الأجواء حتى الشروق موجعاً، لكن أقسى ما شعروا به كان العجز .. نعم فالعجز الذي يفرض على شاب قوي ..مقاتل .. معتز بعقيدته القتالية، مؤمن بحقه في النصر، شعور يفرض الغضب وربما الاكتئاب، فما الذي جعل محمد مبتسماً طوال الوقت؟ هذا هو السؤال الذي كرره الزملاء على محمد إلى أن صمموا على إجابة شافية حتى لا يتهموا محمد بإحدى تهمتين: البلاهة، أو الاستهانة وانعدام الشعور.

أجابهم محمد:

– أنا واثق في أرض سينا .. مش إنشا ومعنويات وكلام من ده أنا والدي وعمي، حكولنا اللي شافوه في ٤٨، ٥٦ وأكدوا إن الجولات اللي بنخسرها مش هي المباراة، وإن خسارة معركة مش معناها خسارة الحرب ..النصر في النهاية للطرف اللي يفرض إرادته ..والدي كان دايما يفكرنا بجهاد سيدنا موسى عليه السلام مع بني إسرائيل والتيه اللي فرضه ربنا عليهم في أرض سيناء والشتات اللي حكم عليهم بيه، هما قتلوا الأنبياء، وقتلوا الأبرياء، وبيستفيدوا من ظروف دولية، لكن حكم ربنا في النهاية هو اللي حايكون، وحايجعله على إيدينا بمشيئته ..

سارت المجموعة، وتعرضت في طريقها إلى كل المخاطر التي يمكن أن يواجهها الإنسان .. وعبروا ممر متلا ثم اتجهوا إلى السويس، وانضموا إلى إحدى المعسكرات حيث انتظموا في وحدات صغرى كلفت بمهام قتالية عاجلة حتى تجمعت وحداتهم الأصلية فانضموا إليها وتحركوا إلى خط المواجهة على طول الضفة الغربية لقناة السويس.

وخلال الأعوام الستة التالية طرأت تغيرات أخرى مؤثرة لعائلة المصري فقد تزوج ياسين وانفصل بأسرته الجديدة في سكن منفصل عن بيت العائلة، ورزق بمولود أسماه موسى، وتوفيت الوالدة؛ الحاجة خديجة، كما انتهت خدمة اللواء فرج وكلف بعمل مدني تناسب مع خبرته، وبكالريوس التجارة الذي حصل عليه أثناء الخدمة ..وطالت خدمة النقيب محمد فرج في الجبهة، وأحس فرحا وحماساً باكتمال تدريبات وتجهيزات العبور ..إلى أن جاء اليوم، وصدر الأمر وارتفع هدير الهتاف إلى السماء:

الله أكبر! مع موجات العبور المتتالية، وتلامست أقدام محمد مع أرض سيناء، فسجد لله شكرا واسترجع حديثه مع رفاق الانسحاب الثقيل، وتمنى لو التقوا في هذه اللحظة لكي يذكرهم بثقته في العودة النهائية إلى أرض سيناء، وتذكر نضال أهل سيناء، وتوافقهم مع الأرض في لفظ المعتدين وكرر في نفسه:

والله يا أرض سينا ..يا أرض التحدي ما تغيبي عن عنينا، وجيل حايسلم جيل من عيلة المصري وعيلة كل مصرى.

***

اختراق السحاب(*)

لم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره، حيث وجد نفسه، محملاً ضمن قطع خفيفة من الأثاث، وأفراد أسرته، وأسرتين أخريتين على ظهر لوري قديم، مغادراً مدينة السويس التي ولد ونشأ فيها، ومتجها إلى وجهة لم يعلمها إلا حين وصلها اللوري بعد ست ساعات قاسية لم يحمه خلالها من برد نوفمبر سوى بلوفر من الصوف، وسمع من الكبار أن المدينة الجديدة إسمها: بني سويف، فاسترجع ما قرأه على علامات الطريق التي أشارت إلى عدد الكيلومترات الفاصلة عنها...

كانت عائلته هي المتبقية في اللوري بعد أن غادرته العائلتان المرافقتان لعائلته في القاهرة، التي رآها للمرة الأولى في حياته ووجدها كبيرة وبيوتها عالية، وحركتها ذات رتم سريع، ورأى الترام، و التاكسي فتمنى ركوبهما.

كان الأثاث المتبقى في صندوق اللوري: كرسيان من الخيزران، وترابيزة متوسطة الحجم، وسجادتان وثلاثة بطاطين، وحقيبتان احتويتا بعض الملابس والأدوات. ساعد يسري والده في نقل الحمولة من اللوري إلى مسكن خاله الحاج/ مدبولي أبو العزايم الفسيح والمكون من طابقين يضمان عديداً من الغرف وحديقة صغيرة غير معتنى بها أقرب إلى الأرض الفضاء. وعلى باب المسكن استقبل الحاجمدبولي وزوجتهابتسام شقيقته سميحة وزوجها الأسطى/ عبد العظيم وأبناءهما؛ يسري، وحسنين الذي يصغره بعامين وبثينة التي وافق اليوم عيد ميلادها السادس بترحاب شديد، وحين احتضن الأسطى/ عبد العظيم رآه أبناؤه – ولأول مرة – يبكي وينتحب، وخفف عنه الحاج/ مدبولي:

- إيه يا عبد العظيم؟ انت مش حاسس إنك سبت بيتك وجاي بيتك التاني؟

(*) القصة حازت على جائزة إدارة الشئون المعنوية للقوات المسلحة.

جفف عبد العظيم دموعه بمنديل من القماش وبصوت مازال متهدجاً متحشرجاً:

- تعيش يا حاج مدبولي. دا عشمي، وأنا عارف مروءتك، بس أنا صعبان عليَّ بيتي اللي عشت فيه واتجوزت وخلفت أولادي فيه، ييجيي شوية كلاب يتفقوا علينا ويضربوا خط الكنال كله من غير رحمة وإحنا ما عملناش حاجة ضدهم، غير إن الريس أمم الكنال إللي هي بتاعتنا، وجدودنا حفروها بضوافرهم. إنت لو شفت السويس تصعب عليك البيوت اللي اتهدمت، والشوارع اللي اتقفلت والخراب اللي بقت عليه البلد.

واستوقفه الحاج/ مدبولي مخففا ....

- جرى إيه يا عبد العظيم، هو انتم مش عارفينهم؟ ما انتم معاشرين الإنجليز ثمانين سنة، وعارفين الفرنساوية بيعملوا إيه في الجزاير، وشايفين المرار والتشرد اللي حصل للفلسطينيين على إيد الصهاينة في إسرائيل. بس والله العظيم، الريس دا راجل وجدع، وإحنا في ضهره ومعانا الحق، وعمر ربنا ما حيتخلى عننا.

وتوقف فجأة عن الحديث ثم حوله إلى وجهة أخرى.

- انتم خدتونا في دوكة، إحنا نأجل الكلام للمسا، ودلوقت ادخلوا بسرعة غيروا هدومكم واتشطفوا وتعالوا ناكل لقمة. دي تلاقيها فطاركم مش الغدا....

دخل الجميع إلى البيت، وقادهم الحاج/ مدبولي إلى حيث أشار بيده:

- دي الأوضة بتاعتك إنت وسميحة، والأوضة دي للولاد، وبثينة حاتنام مع خديجة في أوضتها، وانتم حاتكترونا وتونسونا، بدل ما احنا قاعدين كده زي البيت الوقف أنا وابتسام والبت خديجة اللي من يوم ما خلفناها، وهي قفلت الباب وراها، وكان نفسي في ولد، أدى انت جبت لنا ولدين ... والحمد لله.

في جلسة المساء أراد الحاج/ مدبولي أن يعطي لعبد العظيم الشعور بأنه وأسرته ليسوا عالة على أحد، ولا حتى ضيوفاً تطول ضيافتهم فتنطبق عليهم مقولة "الضيوف، والسمك كلاهما تتغير رائحته بعد يومين" ففاتحه فيما قرره:

- شوف يا عبد العظيم، إحنا مش عارفين إقامتكم مداها إيه، ورغم إن مراتك أختي، وانتوا كلكم في عينىَّ بدل اليوم سنة واتنين، بس أنا عشان أريحك، انت عارف إن عندي ورشة نجارة كبيرة بفضل ربنا، وانت راجل نجار، يبقى حاتستريح بكره، ومن يوم الاثنين بإذن الله، حاتنزل الورشة إيدك في إيدي، واللي ربنا يكرمنا ويرزقنا بيه حايكون كفاية وزيادة، رزق أولادنا.

استمع عبد العظيم إلى عرض الحاج/ مدبولي، ولم يرد على التو، بل سرح لحظات ثم قال له:

- صلي ع النبي يا حاج/ مدبولي.
- عليه أفضل الصلاة والسلام.
- الكلام اللي انت قلته هو الكلام .. وهو العقل. بس أنا للأسف مش حاقدر أقعد في بني سويف متهني وخالي البال، والسويس بتنضرب وبتتهدم بيوتنا واحنا حاطين إيدينا على خدنا وبنمصمص شفايفنا زي الولايا ... أنا متفق مع رجالة الحي إننا حانهجَّر ولادنا، ونرجع ننظم نفسنا عشان المقاومة. أنا حاسيب أختك والولاد في رعايتك، والواد يسري صغير صحيح بس جدع وأنا مطلَّعُه راجل من بدري وكنت باخده طول الأجازة يشتغل معايا في الورشة، وممكن انت كما تاخده الورشة يساعد معاك و ...

قاطعه الحاج/ مدبولي معاتبا :

- إخص عليك يا عبده ... انت شايفني عويل حاكِلْ بلقمة أختي وأولادها؟ عايز تسافر السويس مش حاأقدر امنعك. أولادك في عينيَّ، وحاول بأي طريقة تبعت

لي أوراقهم من المدارس علشان نقدم لهم في مدارس هنا وما تروحش عليهم السنة.

إنتهى الحديث ... ونام الجميع إلا عبد العظيم ظلت عيونه مفتوحة حتى آذان الفجر فقام فتوضأ وصلى ثم ودع زوجته سميحة، ثم دخل غرفة أولاده وقبلهم وخرج مع دعوات زوجته له بالسلامة.

تحت جنح الظلام الدامس كان اللقاء يجمع أبطال الظل؛ عبد العظيم ورفاقه وجيرانه، الذين تحرروا من القلق على زوجاتهم وأبنائهم، أو آبائهم الشيوخ وأمهاتهم وعادوا إلى السويس، لينتظموا في حركة المقاومة الشعبية، ضد العدوان وأقروا فيما بينهم أن نصيب مدينتهم من العدوان أخف وطأة من نصيب بورسعيد لكن الدمار لا يقاس بعدد المنازل المهدمة، واستهداف الكرامة والكبرياء لا يوزن بالجرام، لقد صمموا على البدء فوراً، والتحرك بداية من بزوغ فجر اليوم التالي، قال سليم:

- الصبح نضرب بولطة في السويس، ومداخل المدينة، ونحدد النقط اللي ننصب فيها الكماين ...

واستكمل برهان الحديث:

- وأنا أروح أنا وفوزي نقابل مأمور قسم الأربعين، ونشوف قائد الحرس الوطني علشان نطلب السلاح اللي حانشتغل بيه واحنا عرفنا إن الحكومة حاتسلم ماية وخمسين ألف قطعة سلاح للأهالي.

وعلق عبدالعظيم:

- إحنا محتاجين بعد ما نعرفهم عددنا، إننا نطلب منهم مساعدتنا في حاجتين: أول حاجة، يدربونا على استعمال السلاح اللي حايسلموه لنا تدريب سريع، وتاني حاجة ينصحونا بالخطة اللي ننفذها، ونتفق على واحد منا يبقى مندوب عننا في الاتصال بيهم ...

وتدخل مؤمن طالب الجامعة المثقف:

- براوه يا عم عبد العظيم، لازمن يبقى فيه ضابط اتصال للتنسيق بين الحكومة والأهالي، ولازم كمان تكون فيه وسيلة اتصال بين الطرفين للتبليغ عن الملاحظات، أو تلقي المعلومات.

وعاد عبد العظيم للبناء على ما ذكره مؤمن:

- وأنا باقترح أن مؤمن يكون هو ظابط الاتصال، وإنه يبدأ بالتحرك من الصبح مع برهان وفوزي واحنا نستنَّاهُم بعد صلاة الضهر عشان نبدأ ننظم نفسنا.

وحين سأل برهان عن مكان اللقاء، أجابه عبد العظيم بسخرية ومرارة:

- هوه فيه مكان فاضل على حيلُه غير شقتك يا برهان، ماهي بقت خرابات كلها .... بس ادعى ربنا تفضل شقتك زي ماهيه لحد بكره الضهر.

وضحكت الجماعة فيما يشبه البكاء وقرروا الإنصراف على ألا يتجمع أكثر من فردين منهم في مكان واحد، حرصاً على سلامتهم وتأمينهم من القنابل العمياء التي تسقط من السماء بغير حساب.

أما هناك في بني سويف، فكانت الليلة الأولى لفراق العائل والسند، صعبة، وكانت الليالي التالية أشد صعوبة رغم ما بذله الحاج/ مدبولي من عناء في طمأنة الجميع بتلخيص الأخبار السياسية والعسكرية المواتية والتي تبشر بقرب انتهاء العدوان، وخاصة الإنذار الذي وجهه بولجانين رئيس الوزراء السوفيتي لبريطانيا وفرنسا بأن لندن وباريس ليستا في مأمن من صواريخه النووية وأن إسرائيل سوف تمحى من الوجود ما لم ينسحب المعتدون – كما لخص لهم موقف إيزينهاور الذي تخلى عن حلفائه لبدئهم العدوان دون علمه رغم احتمال جر بلاده إلى حرب عالمية.

وظل يطمئنهم بسرد مواقف الدول والأمم المتحدة، واستكمال سحب الجيش المصري إلى غرب القناة للقتال دفاعاً عن البلاد مع الشعب المتحمس ....

قد يكون كلامه حقق بعضاً من الطمأنينة، وخفف بعضاً من القلق، لكن الطمأنينة الكاملة لا تتحقق إلا بانتهاء القتال وعودة عبد العظيم.

مع نهاية الأسبوع الأول من نوفمبر ساد وقف القتال على الجبهات ماعدا بورسعيد التي استمر الفدائيون بها في أسر جنود بريطانيا وقتلهم حتى تم جلاؤهم كلياً عن المدينة في الثاني والعشرين من ديسمبر، واحتفلت مصر في اليوم التالي بعيد النصر، لكن أسرة عبد العظيم تلقت اتصالا على تليفون الحاج/ مدبولي، ورفعت سميحة سماعة التليفون:

- ألو.
- أيوه يا افندم، حرم الأسطى عبد العظيم؟

وسقط قلبها، وتوقف ضخ الدم في شرايينها، وتوقعت سوءًا ألم برفيق دربها. تمالكت وأجابت:

- أنا مراته.
- أنا النقيب/ أشرف الجارحي من السويس وبابلغك سلام الأسطى عبد العظيم ليكي وللأولاد، وللحاج/ مدبولي وأسرته، وبيطمنكم إنه بخير ولعدم وجود وسيلة اتصال في السويس طلب منى لما قلت للمجموعة إني نازل مصر لمدة يوم واحد – إني أبلغكم إن الاشتباكات توقفت وما عادش فيه أي خطر، بس هو والمجموعة مستمرين في السويس لغاية اليهود ما ينسحبوا من سينا قريباً إن شاء الله. وعايزكم تطمنوه عن أحوالكم.
- متشكرين إحنا بخير، وقول له يخللي باله من نفسه، ربنا يحميكم جميعاً .. وياريت كل ما يقدر، يطمنَّا عليه وعلى زمايله.
- يوصل بإذن الله، سلامو عليكم.

في هذه اللحظة دخل الحاج/ مدبولي وسمع سميحة وهي ترد السلام ثم تضع سماعة التليفون، فسألها عمن تحدث ظنا منه أنها تلقت اتصالا يخصه ... وحين أبلغته، حمد الله كثيراً ثم عاتبها:

- مش كان واجب يا سميحة تسأليه عن نمرة تليفونه ولا عنوانه علشان نوضبله شوية أصناف أكل ليه ولزمايله، تلاقيهم مش عارفين ياكلوا إيه بعد ما بقت السويس كلها خرابات؟
- معلش يا حاج. أنا اتخضيت خضة لما اتصل وسأل عليَّ ، وبعدين قال لي إنه ظابط من السويس واتلخبط وروحي اتسلبت منى لغاية ما قال إن عبد العظيم كويس وبيسلم علينا، وإن شاء الله وصلنا لبر الأمان ويرجع لنا عما قريب.

قضت الأسرتان أمسية طيبة تسودها درجة لا بأس بها من الطمأنينة والأمل في القادم من الأيام، أما عبد العظيم وكل رجال المقاومة فقد استمروا على يقظة حتى بدأت إسرائيل في الإنسحاب بعد أيام، فانضموا إلى أسرهم في مواقع هجرتهم حتى عادوا إلى مدينتهم، وفي ظل السلام أعادت الدولة – تُعاونها سواعد المدنيين – تعمير مدن القنال، وصدحت أصوات الكبار والصغار مع أصوات المقاومين على نغمات السمسية:

يا بيوت السويس يـــا بيوت مدينتي

أستشهد تحتـك وتعيشى إنتـــي

يــا بيوت السويس

وصمم عبد العظيم على ألا يدع للزمن مساحة يفرض فيها سنته بالنسيان على عقول أسرته الصغيرة لأية تفصيلة من تفاصيل أحداث الأسابيع الخمسة الدامية، ولا لمقدماتها أو نتائجها .. كان يقص عليهم في كل ليلة أعمال المقاومة

في السويس وعلى طول خط القناة... وكانوا يسردون تفاصيل معاناتهم وقلقهم عليه رغم ما وفره لهم الحاج/ مدبولي من وسائل الراحة في بيته في بني سويف.

ومرت أيام ... وشهور ... وأعوام ... وشب الأطفال فناهز يسري الواحدة والعشرين... أكمل دراسته الفنية وحصل على دبلوم الصنايع قسم نجارة والتحق بالعمل مع والده ... ثم تبعه شقيقه حسنين على نفس الخطى. أما بثينة فكانت تستعد لخوض امتحانات الثانوية العامة.

تضاعف دخل الأسرة بتضافر جهود الأبناء مع الوالد، وأصبحت في بحبوحة دفعت الأب لمفاتحة ابنه يسري قبل أن تنتهي جلسة إحدي أمسيات شهر أبريل:

- إيه رأيك يا يسري: عايزين نفرح بيك بدري، إحنا ما فيش حاجة تتسبب في تأخير جوازك؟
- إنت ناسي يا بابا إني حادخل الجيش الشهر الجاي؟ يبقى جواز إيه اللي حانفكر فيه؟
- لأ مش ناسي ودا إللي خللاني أفكر في جوازك من غير ما نستنى سنتين يا عالم إذا كانت العروسة حاتستناك ولا يكون صاحب النصيب سبقك؟
- شكلك بتتكلم بقى على عروسة معينة، حاطط عينك عليها؟
- دا إنت اللي حاطط عينك عليها، وأنا ووالدتك ملاحظين اهتمامك بالسفر لبني سويف كل شوية، وطريقتك في الكلام معاها في المرتين تلاتة إللي خالك زارنا فيهم وهي معاه مع مامتها.

وبشيء من الخجل وتأثير المفاجأة من متابعة الأبوين لسلوكه حيالها، علق يسري:

- مش حالِفْ وادور ... ولا حانكر إني مش حلاقي أحسن من خديجة زوجة، ولا حما أحسن من خالي الحاج/ مدبولي ... بس الصح إني اتجوز بعد ما خلَّص الخدمة العسكرية.

- وماله. ما فيش تعارض، إحنا نطلب إيدها، ونقرا فاتحة، ونعمل خطوبة ولاَّحتى كُتَّاب – ونكمل الجواز بعد ما تخلص جيشك.

واتفقت الأسرة ... وأعدت العدة للسفر، ومن أهم ما أعدت هدية لائقة من أنواع السمك والجمبري السويسي، واستأجروا سيارة أجرة نقلتهم إلى بني سويف، وتذكروا خلال الرحلة الفارق الكبير بينها وبين رحلتهم في العام ١٩٥٦ ودعوا الله ألا يعيدها ما حيوا.

كان الاستقبال في بيت الحاج/ مدبولي رائعاً ... وكان التجاوب مع ما قصد الزوار أروع، وبسرعة، وخلال اليوم التالي، تمت قراءة الفاتحة، وقدم يسري الشبكة التي شاركت والدته، العروس ووالدتها في شرائها... وانطلقت الزغاريد، وعلا صوت الغناء ... وسادت الفرحة .. وعادت الأسرة إلى السويس بعد أن أقنعهم الحاج/ مدبولي بتأجيل عقد القران حيث يتطلب تدابيراً لا يوافق على تبسيطها أو اختصارها لاحتفال يليق بوحيدته وابن شقيقته العزيزة.

بعد شهر واحد ارتفع الاحتقان السياسي بشأن إغلاق مضيق تيران أمام الملاحة الإسرائيلية وتلبدت السماء بالغيوم وتصاعدت التهديدات وانتشرت التحركات العسكرية .. وجاء اليوم الحزين، الخامس من يونيو ١٩٦٧ ... وانتهت الأحداث إلى احتلال العدو لشبه جزيرة سيناء، ومواجهته لمدن القنال بعد أن احتل الضفة الشرقية لقناة السويس.

تنحى الرئيس، اعترافاً بالمسئولية، وعلا النحيب، وخرجت جماهير الشعب تتقدمها تنظيمات العمال ترفض التنحي ... ونزل الرئيس على إرادة الشعب وتعاهد على ألا يعلو صوت على صوت المعركة، وانتظم الشعب – دون منظم في البداية– ، فحين عاد الجنود وعبروا القناة إلى غربها، استقبلهم العمال بعد أن تنازلوا عن وجباتهم التي كانت تنقل ساخنة في أوعيتها إلى مراكز الاستقبال،

وفتحت مخازن شركات تموين السفن ليلا، ووضعت محتوياتها تحت تصرف المحافظة، لاستخدامها في إعاشة القوات العائدة ...

شارك عبد العظيم وولده في أعمال المقاومة، مسلحين – فقط – بالدافع الوطني دون تدريب أو تسليح فحين وصل إلى مسامعهم أن العدو ينزل بعض الزوارق في القناة، اتجهوا إلى شاطئها عدواً ولحق بهم عشرات من الأهالي، وقفزوا في القناة وفي أيديهم ما ظنه جنود العدو سلاحاً فانسحبوا بعد أن أسر الأهالي ضابطاً وجندياً منهم وسلموهما إلى أقرب وحدة عسكرية صادفتهم، وحين صافح قائدها عبد العظيم مشيداً بشجاعته ووطنيته هو وزملائه رد باعتزاز:

- دا واجبنا كلنا يا حضرة القائد مش دور العسكريين لوحدهم ... ولا شكر على واجب.

وفي منتصف يوليو حاول العدو رفع علمه على الشمندورة السابحة في منتصف مياه القناة، وتحرك لنش العدو ووصل إلى الشمندورة، وكانت التعليمات تحظر على أفراد القوات المسلحة الاشتباك، قفز غريب محمد غريب ومصطفى أبو هاشم ومحمد عبد ربه، وأسروا أحد جنود العدو وفر الباقون.

أعيد تنظيم القوات المسلحة، واستكمل تسليحها بالتدريج، واحتل جنودها خط المواجهة على طول الضفة الغربية للقناة، وتمت تعبئة كل إمكانيات الدولة إعداداً لمعركة الثأر ورفع الرئيس شعار: "ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة" ... صمد موقع رأس العش واستعصى على المهاجمين، وجاءت ضربة الطيران لمواقع العدو في سيناء في منتصف يوليو، ثم أغرقت لنشات الصواريخ المدمرة "إيلات" في الواحد والعشرين من أكتوبر. ثم أصيبت الغواصة "داكار" ودفنت مع كل بحارتها في أعماق البحر المتوسط.

جن جنون إسرائيل – ورغم أن الأهداف العسكرية كانت في مدى نيرانها، فقد تعمدت قصف الأهداف المدنية في الإسماعيلية والسويس لكي تجبر مصر على

وقف الاشتباك معها تحت ضغط الخسائر التي يتحملها المدنيون، وكان الرابع والعشرون من أكتوبر يوماً مأساوياً ركز فيه العدو قصفه المدفعي على معامل تكرير ومستودعات البترول في الزيتية بالسويس، فاشتعلت الحرائق، وامتدت إلى مساحات شاسعة، واشتعلت صهاريج البترول، وتصدى العمال للإطفاء وانطلق من بينهم العامل محمد الصادق صائحاً فيهم:

- وجهوا الخراطيم على الصهريج عشان يبرد ...

وصعد إلى أعلى الصهريج المشتعل الذي يحوي أربعة آلاف طن من وقود الطائرات ليتمكن من إطفاء النار تماماً، واستشهد مائة عامل، وأصيب عدد أكبر بحروق واختناقات وتمكنوا من القضاء على النيران في مدى ستين ساعة.

ويتكرر العدوان ... وتتكرر البطولات ... وتتضاعف التضحيات ... وتتشكل مجموعات لدفن الجثث، ويتعرف عبد العظيم على جثة فوزي، صديقه المقرب ورفيق المقاومة في العام ١٩٥٦.

قررت الدولة تهجير مليون مواطن من ساكني القناة وقراها، ومن بينهم – بطبيعة الحال – عبد العظيم وأسرته.

في هذه المرة، لم تشمل ضيافة الحاج/ مدبولي من الاسرة إلا شقيقته سميحة، وابنتها بثينة، أما الرجال، فقد عاد عبد العظيم وابنه حسنين إلى السويس للمقاومة، وأما يسري فقد تقدم للتجنيد بالقوات المسلحة.

وفي السويس التقى عبد العظيم وحسنين برفقاء المقاومة؛ سليم وبرهان ومؤمن، وترحموا على زميلهم فوزي وقرأوا الفاتحة، وتعاهدوا على اللحاق به إذا لم ينتصروا في معركة الثأر له ولكل الشهداء الأبطال.

تقدمت المجموعة إلى مركز التدريب الذي أنشئ على عجل وأسندت قيادته إلى الرائد/ مصطفى بكر، والتقوا فيه بعشرات من المتطوعين الذين تلقوا معهم تدريباً سريعاً على فك وتركيب السلاح وصيانته واستعمال القنابل اليدوية الدفاعية

والهجومية، إضافة للتعامل مع المتفجرات والأشراك الخداعية، وانتهت بفن الاشتباك وتمرينات الرماية.

وتذكر مؤمن ما تعلمه خلال اشتراكه بفريق الكشافة بالمدرسة من استخدام للعصى والحبال في إقامة الأبراج، ومن أعمال الطهي الميداني، فعلمها لأفراد المجموعة، واقترح. تعاونهم على إقامة نقاط مراقبة على مداخل المدينة، وخاصة المناطق المطلة على الخليج، وأن ينظموا الخدمات على مدار اليوم والليلة، وتحديد الأفراد المناسبين للعمل كسعاة لتوصيل المعلومات من هذه النقاط، والتعليمات إليها

– وأمَّن الرائد مصطفى على مقترحات مؤمن قائلا:

- جميل إننا نستفيد من أفكار وخبرات كل واحد في المجموعة، لكن حانستفيد من الخبرة العسكرية اللي أنا حانقلها ليكم، ونستفيد من خبرات كل واحد فيكم؛ الحداد والنجار والبنا وغيرهم وكمان حانحتاج للموظف والطالب اللي حاينظم لنا الأعمال الإدارية والبيانات، وحانختار المجموعات القتالية، من الشباب وأصحاب اللياقة الجسمانية العالية، والمتميزين في الرماية، وأنا حاكون صلة بينكم وبين القوات المسلحة للتنسيق وتنفيذ الأعمال اللي تطلبها، وإضافة لأعمال الحراسة والدفاع المدني.

وعلق سليم قائلاً:

- واحنا الحمد لله مننا عدد كبير خدم في الجيش، مِنِّنا ناس استدعوا في مايو اللي فات للخدمة وفي ناس زينا كده انتهت فترة الاحتياطي بتاعتهم، وكبروا شوية في السن زي حالاتنا، لكن الدهن في العتاقي يا أفندم واحنا ما نسيناش اللي اتعلمناه في الجيش.

- كويس قوي ماهو اللي زيك يا سليم حايبقى حكمدار مسئول عن جماعة ...

وضحك عمارة بصوت عال بينما قال بصوت يكسوه المرح والمزاح:

- أنا والكسر اللي زي حالاتي، حانقوم بدور برضه؛ نطبخ .. ونعمل شاي ونوزعه ع الرجالة، ونوصل تعليمات، ننقل سلاح ... ذخيرة ... أوراق ... أي حاجة نتكلف بيها..

وعلق الرائد/ مصطفى:

- كل عمل يقدر أي واحد يقوم بيه مهم جداً ... ولا يمكن الاستغناء عنه ... وخللي بالكم، إحنا حانختار مجموعة ندربها تدريب راقي على أعمال الإغارة حاتعَدُّوا سينا في عمليات معاونة للقوات المسلحة والكماين، علشان لو تطورت الظروف واحتجنا لعملهم ..

وصاح عبد العظيم في فخر:

- إحنا كلنا جيش وشعب، حانوري العدو إننا مش لقمة طرية حايبلعها ويهضمها ... إحنا حانخليهم يندموا إنهم قربوا مننا إن شاء الله ...

سعد الجميع وهللوا ... وكبروا ... وبدأوا في مباشرة التكليفات مع استمرار التدريب وارتفاع مستوى كفاءتهم باطراد مازاد ثقتهم بأنفسهم، ورفع معنوياتهم، وضاعف يقينهم بالنصر.

ذات ليلة من ليالي ديسمبر شديدة البرودة ... وخلال تجمع لعدد من المقاومين أسفل بناية، مازالت قائمة – أصابت الأسطى زين قشعريرة فاهتز جسده، وتحبب جلده ... وصاح:

- إيه البرد دا كله ياجدعان، عايزين نسخن؛ يا اشتباك، يا كباية شاي، ومش طالب سلطانية عدس ملهلبة ...

وقبل أن يصل الحرف الأخير من عبارته إلى الأسماع فوجئ الحاضرون بصوت مؤمن:

- انت جيت في جمل؟ شبيك لبيك ... عبدك وبين إيديك، وادى تمن كبايات عدس صنعة إيديَّ لكل الرجالة الجدعان ...

وبالفعل، وفي ضوء القمر – دون غيره – رأى المجتعون الشاب الاسمر، طويل القامة، ممشوق القوام يحمل قطعة من الأبلكاج وعليها أكواب يتصاعد منها البخار، فدار وسطهم، وتوقف عند كل منهم يسلمه كوبا من العدس ليحيطه بكلتا كفيه، ويرشف منه طاقة ودفئاً، وفي الفاصل ما بين الرشفات تعالت الدعوات لمؤمن بأن يحميه الله لشبابه ....

ولما كانت المدينة قد حوت الأعداد المتزايدة من الفدائيين المتطوعين فقد دارت مناقشات المجموعة حول توسيع نشاطها، وعدم الاكتفاء بحماية المصانع المهجورة، والبيوت الخاوية، وأعمال الدفاع المدني من الإنقاذ وإطفاء الحرائق. فقال سليم:

- يا جماعة، إحنا مانقدرش نحدد أي حاجة بالنقص ولا بالزيادة من غير أوامر – وإن كان لنا رأي – نبلغه لسيادة الرائد، وهو اللي يحدد إللي ينفع واللي ما ينفعش، لكن اللي نقدر نعمله، إننا نرتب أمور حياتنا، ناكل إيه وإزاي .. نتابع الأخبار ونشوف الدنيا فيها إيه ... نعمل نظام عشان كل واحد مننا ينزل – بالدور – يطمن على أهله، ويطمنهم عننا ...

وصاح مؤمن :

- يسلم فمك يا عم سليم .. دا الكلام. إحنا لا عارفين حانزيل آثار العدوان إمتى، ولا الأمور حاتستمر على ما هي عليه، ولا تتحسن ... ولا لا قدر الله تزيد صعوبتها .. عشان كده لازم نحط نظام، ونحدد مسئوليات، ونعتبر إن القوة الموجودة اللي زادت عن ماية وخمسين راجل، إنها تسعين في المية من العدد، عشان الأجازات، وطبعاً حانبلغ سيادة الرائد بكل اللي حانتفق عليه علشان تخطيطه وتكليفاته تبقى سليمه.

في بداية تنفيذ ما تم الاتفاق عليه؛ كلف عبد العظيم ولده حسنين بالسفر إلى بني سويف لطمأنة العائلة، وعبثاً حاول الإبن أن يقنع والده بأن يسافر هو، لكن الأب صمم قائلاً:

- إنت تسافر، حركتك أخف مني، وبعدين أنا عارف قلب الأم، لا انت ولا يسري قدام عينيها، وجايز تكون عرفت يسري وصل لفين، يبقى برضه تطمني عليه لما ترجع بالسلامة.

وكلفت المجموعة التي أصبحت منظمة باللفظ والمعنى، إيهاب، ابن العشرين ربيعاً بالسفر إلى الإسماعيلية، وبورسعيد، مروراً بالقرى التابعة لهما لاستطلاع الأحوال فيها، والاتصال بأفراد المقاومة فيها وإطلاعهم على الأحوال في السويس ....

في بني سويف كان لقاء الأم والأخت، والخال وأسرته بحسنين حاراً، غلبت عليه الدموع من الجميع، ثم كانت مئات الأسئلة عن الأحوال: كيف يأكلون ويشربون؟ أين وكيف ينامون؟ ما هو الموقف في المدينة؟

وعلى مائدة الطعام التي حوت من أصنافه ما افتقده حسنين منذ شهور، اكتفت الأم بمتابعة ابنها، بينما تمد يدها ببعض الطعام إليه، كلما لاحظت قرب فراغ فمه، وحين يشير إليها بكفه إشارة لاكتفائه بما ابتلع، يحثه خاله على تناول ما تقدم إليه والدته:

- خد يا إبني اللي بتديهولك أمك ... دي بقى لها شهور ما بتاكلش ... كل ما نقول لها كلي ... تقول لنا: "ما أقدرش أبلع الأكل وأنا مش عارفة جوزي وأولادي بياكلوا ولا جعانين" .. كل يا إبني خلينا نعرف نأكلها الله لا يسيأك ....

ومضى يومان، وهمَّ حسنين بالاستعداد للعودة، وعبثاً حاول الأهل استبقاءه لمزيد من الوقت، ولو ليوم واحد لكنه اعتذر بشدة:

- يا جماعة هناك ناس ماشافوش أهلهم من أول ما رجعنا، ومن حقهم برضه ينزلوا ولو يوم واحد .. وعلى كل حال، أنا حا أنزل مرة ... ووالدي حا ينزل مرة وكدة نقرب المسافات إن شاء الله – ثم استدرك قائلا:–
- عندكم أخبار من يسري؟

وأجابت الأم مطمئنة:
- أخوك بخير يا حبيبي، وبعد ما خلص فترة المستجدين جه قعد معانا ثلاث أيام، وسألنا عليكم بس ما كناش نعرف عنكم حاجة، ربنا يحميه ويحميكم ... وطمن أبوك إننا بخير ومش ناقصنا غير وجودكم معانا ... وربنا يجمعنا عن قريب إن شاء الله.

وكان الوداع بمثل ما استقبل به من دموع ولهفة، صاحبتها الدعوات بالسلامة والعودة القريبة. وكأنه غاب عن أبيه شهوراً، وكأنما ابتعد عن الأمان حين ابتعد عن جبهة القنال، فحين عاد، استقبله أبوه بالعناق والقبلات، ولم يمهله حتى يلتقط أنفاسه، بل بادره بالسؤال:
- هيه؟ طمني يا إبني عن أمك وأختك وخالك وعيلته ... وكل الناس اللي شفتهم ... الناس عاملين إيه؟
- الجميع بخير وقلوبهم معانا ... وحاسين بينا ... وبيدعولنا .. ويسري بخير ونزل أجازة المستجدين ويمكن يتوزع على سلاح جديد اسمه الدفاع الجوي ... وبمناسبة الناس كلهم ... الشعب المصري كله بخير ... وعندهم حماس يكفي نحارب أمريكا ... أنا قابلت عند خالي الحاج مدبولى، سمير ابن خالى محمد؛ طالب في جامعة عين شمس في مصر، وبيقابل في الجامعة طلبة من بحري ومن قبلي، وبيتكلموا مع بعض ...

وقاطعه الأب مستوقفاً:

- لأ استنى بقى نده لزمايلنا يسمعوا اللي حاتقوله عشان الكلام ده يهم الجميع.
ونادى على الرفاق بأسمائهم، وحين حضروا جلسوا على ما توافر لهم؛ كرسي كسرت إحدى أرجله الأربعة ... حجر ... عتبة باب ... المهم طلب الأب من ابنه استئناف الحديث:

- إحكي لنا يا حسنين اللي قاله طالب الجامعة عن اللي بيحكوا عنه، ويتكلموا فيه:
- أولاً: الطلبة عملوا مظاهرات عشان شايفين إن الأحكام اللي صدرت على القيادات اللي أهملت أقل من اللي هما كانوا متوقعينها .... ثانياً: متحمسين جداً وبعضهم طلب التطوع وعايزين يروحوا الجبهة ... ثالثاً: الكل بيتبرع للمجهود الحربي، حتى الناس اللي على باب الله، بيقولوا إحنا نضحي بلقمة عشان نحافظ على بقية الرغيف ... والإعلام بيطمن الناس إن الجيش وقف على حيله من جديد وإن المرحلة الحالية هي مرحلة الصمود، بداية طريق إزالة آثار العدوان، وإن العالم بدأ يحمِّل إسرائيل مسئولية قفل القناة ودوران السفن حوالين إفريقيا والتكاليف الجامدة اللي زادت على مصاريف النقل.

وسأل برهان عن معيشة الناس ومدى الرفاهية أو المعاناة ... وأجابه حسنين:

- لأ رفاهية إيه يا عم برهان .... الشبابيك كلها مدهونة باللون الأزرق وعليها ورق لاصق .. الأبواب قدامها جدران، النور مطفي معظم الليالي ... التموين بعافية برضه مهما كان، كل اللي اتخرج من الجامعة اتجند عشان في أسلحة جديدة، تشغيلها بالكمبيوتر وعايز شباب متعلم ... في بيوت كتيرة حزينة على أولادها اللي ماتوا، واللي مارجعوش من سينا لحد دلوقت، واللي انصابوا وبيتعالجوا ... اللي حصل ما كانش شوية يا عمي .. والكل بيدفع تمنه غالي.

وشاء الله أن تكون جلسة ثرية بالأخبار والمعلومات السياسية والعسكرية فقبل أن ينتهي حسنين من تقريره عن الجبهة الداخلية وصل إيهاب بعد جولته في مدن المواجهة فاستقبلته المجموعة بالترحاب واستثنوه ليشرب الشاي الذي أعده مؤمن في أول دور حيث لا تكفي الأكواب إلا لربع العدد الموجود فجاء في وقته المناسب .. ومع رشفات الشاي قص عليهم تفاصيل جولته:

- أنا ركبت الموتوسيكل – والحمد لله إن كان فيه بنزين كفاية ... واتحركت بعد الفجر واتوجهت لطريق القنال، لقيته مفتوح للتحركات العسكرية بس، وممنوع للمدنيين ... لفيت من الشط على الشلوفة وجنيفة وكسفريت، على فنارة وفايد، ما قابلتش مخلوق، غير بعض العساكر اللي استغربوا من وجودي، وبعضهم سألوني أنا جاي منين، ورايح فين ... وكملت على أبو سلطان وسرابيوم، ودخلت الإسماعيلية، لقيت حالهم من حالنا، يمكن فيه بعض المحلات فاتحة وخساير البيوت أقل من عندنا كتير، لكن عموماً السكان متهجرين، لا في مدارس ولا أعمال، وطبعاً من ساعة الكنال ما اتقفلت، لا بقى فيه موظفين ولا عمال – قعدت على قهوة لقيت فيها اتنين زي حالاتي وتلات عساكر حاولت أسألهم عن الأحوال، قالوا لي اطمن إحنا بخير والأمور ماشية لقدام، بس يا ريت لا تسألنا، ولا تسأل غيرنا عن أي تفاصيل. إحنا عندنا أوامر بعدم الكلام علشان ما يتكررش اللي جرى ... أما المدنيين فقالوا لي: الحال واقف، وأهالينا سفرناهم بحري واللي قاعدين في مركز شباب، واللي قاعدين في مدرسة ... بس دي مش جديدة علينا. إحنا اتهجرنا ٥٦، وادينا اتهجرنا ٦٧، وإن شاء الله الدور الجاي ع الصهاينة نهجرهم من القدس ....

ولقيت محل بقالة كويس فاتح جنب القهوة، اشتريت لكم منه وأنا راجع شوية طلبات بالفلوس اللي انتم جمعتوها لي وانا مسافر، ومونت الماكنة من محطة البنزين الوحيدة اللي لقيتها فاتحة في الخط كله ...

واستوقفه أبو خالد معلقاً :

- براوة عليك يا إيهاب، انت زي اللي فتح لنا شباك نطل منه ع الدنيا، خد راحتك واشرب لك كباية شاي تانية مع الدور الأخراني علشان تكمل لنا الرحلة على رواقة ...

ولمح أحد الجالسين نوراً خافتاً لسيارة قادمة من بعيد فقال بصوت خفيض:

- في عربية جاية في اتجاهنا. اتنين ياخدوا السلاح، ويقفوا ورا فرد الخدمة وهو بيعارضها يشوفوا إيه حكايتها.

وسمع الجميع صوت فرد الخدمة وهو يعارض السيارة ويستوقفها سائلاً عن كلمة سر الليل وأطفئ نور السيارة، وعاد المكلفان بتعزيز الخدمة برفقة الرائد مصطفى فألقى بالتحية على الحاضرين:

- مساء الخير يا رجالة ...
- ورد الجميع بمودة وترحاب:
- مساء الخير يا افندم ... نورت.
- لأ بلاش نورت دي عشان دي مخالفة للأوامر، برافوا انكم مصحصحين والخدمة قايمة بالواجب.. وضحك الجميع وأبلغوه بما سمعوا من برهان، ونادى عبد العظيم على مؤمن لزيادة كوب شاي على المطلوب تحية لسيادة الرائد ...

شكر لهم الرائد/ مصطفى وقال منبهاً:

- قبل بس ما يبدأ إيهاب، أنا عايز انبهكم إن كلمة السر اللي أنا بابعتها لكم كل يوم، دي خاصة بينا إحنا بس داخل المدينة، يعني مالهاش دعوة بالجيش ... أنا جيت أنبهكم يحسن حد يقرب من أي موقع عسكري وهو مطمن إنه عارف كلمة سر الليل وتبقى مشكلة لو اتعارض وقال كلمة غلط – كمِّل بقى يا إيهاب.

واستأنف إيهاب الحديث:

- بعد ما خرجت من الإسماعيلية، عديت ع الأرياف الموجودة في المنطقة، أبو أمين، وعين غصين وأبو خليفة، واتفاجئت ان الدنيا بخير، الفلاحين موجودين، والزرع في الغيطان، وجناين المانجة زي ما هي، والعساكر اللي محتلين فيها محافظين عليها .. شفت السمسم وفول السوداني والترمس، والخضار في الأرض، وقلت عمار يا مصر .. وواحد من الفلاحين في أبو خليفة فرح بي، وحلف إني اتغدى معاه، ولما اعتذرت له بإني ما عنديش وقت وإني في مأمورية با اطمن ع الأحوال، حلف عليَّ اشرب الشاي، وعلى ما شربته كان عمل لي لفة كبيرة وقال لي: "شوية فول سوداني ليك ولزمايلك .. الجودة بالموجودة" ...

وكملت طريقي ع القنطرة غرب والكاب والتينه .. وفي بورسعيد، لقيت شوية محلات وقهاوي ومطاعم شغالة خصوصاً في الأفرنج .. والمباني – الحمد لله – سليمة وتمام مافيش غير فندق ع البحر اتصاب بصاروخ، والجيش والحمد لله مأمِّن المدينة من كل ناحية، وطبعاً الناحية التانية رجالة الصاعقة الأبطال مازالوا محافظين على راس العش.

وتوتة ... توتة .. خلصت الرحلة – حلوة، ولا ....

ضحك الرجال وسعدوا حقيقة كأنهم رافقوه في رحلة ترفيهية رأوا فيها العالم، وخرجوا من الظلام الذي يعيشونه ليلاً، والذي يملأ قلوبهم نهارا شوقاً للأهل وليوم الخلاص.

مرت الأيام حتى أكملت شهراً حين قرر عبد العظيم زيارة الأسرة ... وحين وصل بني سويف وبعد السلام على الحاج/ مدبولي وزوجته وابنته خديجة خطيبة ولده يسري .. تساءل عن زوجته وابنته بثينة، وابتسم الحاج/ مدبولي بينما رد على تساؤله:

- سبحان الله يا عبده، امبارح بس طلعت في دماغ سميحة، إنها تزور اختنا سناء في البحيرة وأنا بصراحة شجعتها عشان تغير جو، وتفك عن نفسها شوية،

وأخذت عربية أجرة وسافرنا معاهم، وبيتنا معاهم ليلة وجينا انهاردة الصبح ... لو كانت تعرف إنك جاي انهاردة ما كانتش فكرت ثانية تتحرك من مطرحها.

- كل شيء نصيب – أنا حا ارتاح شوية، وأقوم أسافرلهم، ونشوف برضه أحوال الناس في بحري، ويمكن أعرف اطمن على أولاد صاحبي برهان، كان بيقول لي إنهم قاعدين في مركز الشباب في دمنهور.

قضى الرجلان وقتا تبادلا فيه الإطمئنان على أحوال كل منهما ومعرفة أخباره، ثم غادر عبد العظيم فركب القطار إلى القاهرة، ثم قطارا آخر إلى دمنهور، وكان اللقاء مؤثراً برفيقة العمر مزدحماً بالأسئلة التي وجهتها إليه عن ماذا يأكل، وكيف ينام، وأخبار ابنهما حسنين، ومدى الأمان أو الخطر المحيط بهما .. ومن يغسل ثيابهما .. و .. و ...

أجاب الرجل وجاء الدور عليه لكي يلقى عليها بعشرات الأسئلة:

- أخباركم إيه؟ وبثينة دخلت المدرسة؟ وأخبار يسري إيه؟ نزل تاني ولا لسة؟ ... ثم كانت جلسة عائلية ضمت معهما المضيفين؛ سناء وزوجها مرسي الذي أمطره عبد العظيم بالأسئلة هو الآخر عن أخبار مصر والمصريين، ولخص مرسي إجابته:

- والله يا عبد العظيم الناس عايشة في حزن، وما فيش على لسانهم ليل ولا نهار، غير إمتى نخلص من الكابوس اللي طبق علينا، وطبعا راجل موظف زي حالاتي كان لازم أرتب نفسي إني أعيش بالمرتب من غير مليم؛ مكافأة، ولا علاوة لأن العلاوات اتوقفت، وبعدين نتبرع للمجهود الحربي، ويارب اللي بنتحمله يكون كفاية علشان الدولة تواجه الظروف السيئة، داغير اللي بنعمله مع المهجرين اللي في مركز الشباب ومدرستين كمان، كل أسبوع بنزورهم واللي ربنا بيقدرنا عليه بنعمله، اللي عنده بطانية زيادة ولا هدوم شتوي بيقدمها، واللي بياخد شوية فاكهة ولا حلويات للولاد .. وبصراحة لما بنشوف أحوالهم بتهون

علينا حياتنا .. واهى ظروف بنتحملها لغاية ما ربنا يريد ويرجعوا بيوتهم سالمين غانمين...

- طب بالمناسبة، يا ريت على آخر النهار، تيجي معايا نطمن على أولاد واحد صاحبي في مركز الشباب.
- طيب يلا ناكل لقمة فضلة خيرك ... وتستريح لك ساعة ولا حاجة .. وننزل سوا.

وبقدر ما اهتزت نفس عبد العظيم بما رأى من حال المهجرين في مركز الشباب، وأسرة صديقه برهان وصلف العيش الذي يلقونه، بقدر ما حمد الله وشكر فضله أن قيض لأسرته حياة طيبة عند الرجل الفاضل، الحاج/ مدبولي .. وخلال جولته في المركز صادف رجلين جالسين على قاعدة سور منخفضة، فألقى عليهما السلام، وقبل أن يتخطاهما لمح وجه أحدهما فإذا هو سيد؛ جاره في السويس، فتوقف وناداه، ووقف الرجل وفوجئ بعبد العظيم ... تعانقا، وتبادلا الأشواق والتحيات ثم سأله سيد:

- إنت جيت معانا هنا في المركز؟
- لأ دا كنت بازور عديلي – وأشار بيده إلى مرسي مقدما إياه لصديقه – ثم قدم الصديق إلى عديله، واستكمل حديثه مع سيد والرجل الذي كان يجالسه:
- إنتم هنا بتعملوا إيه؟

وضحك سيد بسخرية ممزوجة بالألم:

- يعني حا نعمل إيه يا عبده؟ الحكومة بتقول إنها بتحاول توجد لنا شغل .. بس شغل إيه اللي حا توجدهو لنا؟ إحنا بمبوطية، ما نعرفش حاجة غير ركوب الفلوكة، وتلقيط رزقنا من المراكب اللي معدية، نبيع لهم .. نشتري منهم .. يبقى الحكومة ولا غيرها حاتشغلنا إيه؟

- لأ انتم مالكوش شغل هنا ... انتم بتحبوا السويس، وأكيد الجيش ممكن يستفيد من ركوبكم البحر، دا انتم لقطة حاتفيدو البلد بدل قعدتكم اللي مالهاش لازمة دي.
- طيب والحرمة والعيال؟
- مالهم؟ ما هم قاعدين زي ما هما ... إنت يعني قعدتك معاهم بتعمل لهم حاجة؟
- والله أبداً .. دا إحنا حاسين بقلة الحيلة، يعني يمكن لو اتكلفنا بحاجة وقدرنا نعملها، نحس إن لنا فايدة وقيمة ...

وعلق الجليس:

- القول، قولك، دا إحنا كده حاسين إننا زي الولايا ... طول النهار يا نرغي مع بعض في الفارغة والمليانة، يا نحط إيدنا على خدنا واحنا عجزة ...

خلاص جهزوا نفسكم، أنا حاخد عيالي وراجعين بني سويف الليلة، حا أبيِّت معاهم ليلتين، ويوم التلات إن شاء الله حارجع السويس، وياريت انتم برضه في اليومين دول ترتبوا نفسكم ونتقابل في السويس.

ومضى عبد العظيم حيث أكمل زيارته للأهل، ثم اصطحب زوجته وابنته فعاد إلى بني سويف حيث قضى يومين مع أسرته في ضيافة الحاج/ مدبولي ... وحانت لحظة الوداع القاسية ... وعاد إلى السويس حيث استقبله الزملاء وولده حسنين بالفرحة والترحاب، ولم يكن هناك بُد من قص ما جرى خلال الرحلة، وعلى الأخص منها لقاءه بالبمبوطية العائدين للحاق بهم ..

عاد سيد وبرفقته غريب إلى السويس فالتقيا عبد العظيم الذي اصطحبهما إلى حيث قدمهما إلى الرائد/ مصطفى الذي أثنى على إجادتهما التجديف والسباحة وأبلغهما أنهما سيكلفان بعد تدريبهما المكثف بالعبور إلى سيناء لتوصيل متطلبات يحتاجها بعض الجنود الذين يعملون خلف خطوط العدو.

وسار الزمن، وأصبح الاستثناء قاعدة؛ تطبع الجميع بمقتضيات الجهاد والكفاح؛ العسكريون استمروا على ما درجوا عليه، واعتادوا تحمله، لكن درجة الجهد والمعاناة تضاعفت أضعافاً كثيرة، وفرضت الظروف عليهم أن يطول يومهم ليصبح مائة ساعة؛ تدريب مستمر، تجهيز للمواقع، استكمال للتسلح، يقظة مضاعفة وإيقاف لاحتياجاتهم الإنسانية؛ لا زواج، لا تواصل مع الأهل إلا فيما ندر، لا فرصة للقاء الأحباب والأصدقاء ... كانوا يؤمنون بما قدر الله لهم، وما فرضه الوطن عليهم من ضريبة، لكن المدنيين هممن تم طلاؤهم باللون الكاكي، أصبحوا جميعاً جنوداً، العمال في المصانع أصبحوا كتائب للإنتاج ولتأمين مصانعهم، وتكررت تبرعاتهم للمجهود الحربي، وأضافوا ساعات عمل إضافية بدون أجر ... وتدربوا على حمل السلاح، وتبرعوا بالدم للمستشفيات العسكرية والمدنية، وتطوع الآلاف في الدفاع المدني والجيش الشعبي للإرتقاء بمستوى الدفاع عن مصانعهم ...

ذلك في كل ربوع الوطن، لكن مدن الجبهة، وفي مقدمتها السويس كانت شيئاً آخر، فأصبح الرجال ولا شيء يشغل بالهم إلا ما يستنزف العدو، ويهدر إمكانياته بعد أن انتهت مرحلة الصمود أمام عنته وجبروته في أغسطس من العام ٦٨ فصدوا قوات العدو التي حاولت نزول الشاطئ، وقاموا بعدة عمليات لمعاونة الجنود خلف خطوط العدو في سيناء .. وتعجبت مجموعة عبد العظيم من أخبار هذه العمليات وفي لقاء مع الرائد/ مصطفى سألوه عمن يقومون بها واستكثروا ألا يكونوا هم من ينفذونها وهم أهل السويس وأولى بها .. وابتسم الرائد/ مصطفى، وقص عليهم حقيقة الأمر تطييباً لخاطرهم.

- الأبطال اللي بيقوموا بالعمليات دي منكم، من أهالي السويس، وقليل منهم من خارجها، ودول إحنا شكلناهم في منظمة فدائية اسمها منظمة سينا ودول خمسميت متطوع دربناهم في الجبال وفي البحيرات، وتدريبات اشتباك ورماية

وزرع ألغام .. واحتفظنا بالموضوع سر مايتذاعش، لكن مش سر عليكم وانتم أول ناس اتطوعوا وساعدونا في ترشيح أعضاء المنظمة، يعني الاثنين اللي قدمهم لي الأخ/ عبد العظيم هما متطوعين في المنظمة من أربع شهور وكانوا مسافرين دمنهور يطمنوا على عائلاتهم ولما قابلهم عبد العظيم وعرض عليهم ييجوا السويس، مارضيوش يقولو له حاجة عن المنظمة إلا لما يرجعولي وهما الفدائي/ سيد البشتلي، وغريب محمد غريب وهما من ضمن الخمستاشر فدائي اللي اجتازوا التدريب الراقي وبيقوموا دلوقتي بعمليات ..

صفق الحاضرون رضا وإعجابا، ولكن معظمهم تمنى أن يكون منهم، وأعرب عبد العظيم عن رغبته في ذلك:

- شيء يسرنا ويسعدنا، بس إحنا مش أقل منهم، ولا هما أحق مننا بالشهادة.
- كلنا ذلك الرجل يا عبد العظيم، بس هي عملية تنظيمية عشان كل واحد ياخد الدور اللي يناسبه، وكل الأدوار مهمة وبتكمل بعضها، يعني مثلاً إنت سنك فوق الخمسين لا يمكن تكون لياقتك البدنية زي شاب في التلاتين ...
- دا موضوع يخصكم كمسئولين فاهمين أكتر مننا بس إحنا بنعرض نفسنا لأي تكليف ورقابتنا سدادة ...

وانضم إلى الاجتماع عبد الرحمن طنطاوي، أزهري معمم يعمل خطيباً لأحد مساجد الأوقاف بحي الأربعين:

- السلام عليكم ورحمة الله .

ورد الجميع:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أهلاً وسهلاً يا شيخ/ عبد الرحمن – اتفضل.
- شكراً – أنا جاي أسلم عليكم قبل ما أسافر.

وسأله الحاضرون:

- على فين العزم يا شيخ عبد الرحمن؟

- أنا مسافر أقدم نفسي لإدارة التوجيه المعنوي ضمن عدد كبير من الخطباء والوعاظ اللي حاينضموا للوحدات العسكرية عشان نساهم في التوعية الدينية وإمامة الصلاة في الوحدات.

انشرح صدر الحاضرين، وقال مؤمن:

- أول تباشير النصر بإذن الله؛ العمل بهمة مع السير في طريق الله، ربنا يوفقكم يا شيخ عبد الرحمن.

وانصرف الرجل محفوفا بالدعوات وإكبار دور الأزهر ورجاله في المعركة ...

وابتسم الرائد/ مصطفى وقال:

- شايفين توزيع الأدوار؟ كل مصري له دور لأن المعركة معركة مصر، أقول لكم على حاجة ظريفة؟ إنتم عارفين طبعاً دور الفن من خلال الإذاعة والتليفزيون؛ الأغاني الوطنية ... وجمع التبرعات وغيره لكن ماتعرفوش مثلاً إن الكابتن/ غزالي لما غنى في لقاء قيادي أغنية على السمسية من تأليفه مع زملاؤه، شافت القيادة إن ده دور مهم ونظمت للفرقة اللي سماها: أولاد الأرض، جولة لتقديم أغانيهم في المواقع العسكرية، وخصوصاً إنهم بيدُّو الأمل لما يقولوا: "فات الكتير يا بلدنا ... مابقاش إلا القليل"، وعلى فكرة مش بس أولاد الأرض، دا في بورسعيد، فرقة شباب النصر من العاملين بهيئة قناة السويس، وفي الإسماعيلية فرقة تحرير الأرض، وفي القاهرة فرقة غنائية من عمال مؤسسة روز اليوسف ...

كانت الأيام ثقيلة في حركتها ... كان الجميع يتعجلون مرورها وصولاً ليوم الخلاص، لكن العدو تبنى رأياً آخر كان يفعل كل شيء لتيئيس المصريين؛ في ليلة الأول من نوفمبر ٦٨ ابتعد عن الجبهة وقصف مصنعاً ومحطة محولات في نجع حمادي .. وردت القيادة بإنشاء جيش الدفاع الشعبي لحماية أربعة آلاف هدف حيوي على مستوى الجمهورية، وسارت الحياة حبلى بالأحداث الجسام،

والمرابطون يحرسون مدينتهم، ويزودون عن تراب وطنهم، وأغارت إسرائيل على الزعفرانة جنوب السويس ودمرت راداراً حديثاً في سبتمبر ٦٩ وبعدها بشهرين أغارت الضفادع البشرية المصرية على ميناء إيلات حيث دمرت ثلاث سفن إنزال إسرائيلية، ولجأت إسرائيل لأسلوبها الخسيس في استهداف المدنيين فقصفت مصنع أبي زعبل مع بدايات العام ١٩٧٠ واستشهد ستة وثمانون من عمال المصنع وأصيب مائة وثلاثون منهم .. وبعدها بثلاثة شهور استهدف طيرانهم مدرسة بحر البقر فاستشهد ستة وأربعون تلميذاً، وتساوى الأطفال مع العمال وكل المدنيين في التضحيات الجسام نتيجة لغارات العمق، واستمرت عربدة الطيران الإسرائيلي حتى إذا ما بدأ بناء قواعد الصواريخ، قام الطيران الإسرائيلي يوم الأول من مارس ١٩٧٠ بضرب العمال أثناء العمل فاستشهد مائة منهم، ولم يتوقف العمال رجالاً ونساءًا عن إعادة بناء ما هدمه الطيران، وتوالى القصف والاستشهاد والبناء في سباق كسبه العمال، وأقيم حائط الصواريخ وخلال اختبار إسرائيل لفاعليته أسقطت ثمانية طائرات مقاتلة خلال أربعة أيام، وفي كمين صاروخي في منطقة جبل جنيفة أسقطت ثمانية طائرات فانتوم وتم أسر خمسة من طياريها، ودعا الرائد/ مصطفى ثلاثة مجموعات من المقاومين للقاء موسع في مركز الشباب، وحين اكتمل الجمع سألهم:

- مين يحذر أنا جامعكم انهاردة علشان إيه؟

رد حسنين مخمناً:

- أكيد في عملية جديدة، وحا يتم فيها تعاون بين أكتر من مجموعة.
- لا يا حسنين أنا جامعكم علشان أبلغكم شكر وتقدير القيادة لكم كلكم، وفي نفس الوقت نكرم بعض الناس اللي قدموا أعمال بارزة في قمة الشجاعة، وبدون تكليف ..

أنصت الجميع متلهفين لسماع المزيد، وواصل الرائد/ مصطفى حديثه:

أولاً: زميلكم عبد المنعم خالد – أول عضو في منظمة سيناء – عبر ومعاه محمود عواد وغريب محمد غريب البحيرات المرة في فلوكة، ونزلوا على الشاطئ الشرقي، وزرعوا الألغام في طريق الدبابات الإسرائيلية، وبعد رجوعهم سمعنا تلات انفجارات متتالية، يعني في تلات دبابات انفجروا، ورصدت نقط الملاحظة النيران والدخان.

ثانياً: الزميلين عبد المنعم قناوي ومحمد سرحان شافوا طيارتين إسرائيليتين بيسقطوا ووراهم دخان كثيف، فخدوا عربية ومعاهم أربعة من الناس اللي كانوا موجودين جنبهم، وجريوا في اتجاه سقوط الطيارتين ولاحظوا أن الطيارين قفزوا بالمظلة، فاتجهوا ناحيتهم، وأطلقوا النار فوق رءوسهم، فرفعوا أيديهم واستسلموا، وقبضوا عليهم، وكتفوهم، وسلموهم لمكتب المخابرات في السويس ... دول مثالين اتنين من أمثلة كتيرة، انتم كلكم مشاركين فيها، وبنطمن الجميع إنه ما عادش الطيران الإسرائيلي يجرؤ يقرب من أجواء التل الكبير وأنشاص ودهشور والمعادي زي ما عمل قبل كده.

صفق الحاضرون وأخذوا يعانقون بعضهم البعض وسأل برهان:

- يعني الطيران الإسرائيلي انقطعت رجله وما عادش يدخل سمانا وهو مطمن إنه حا يرجع سليم؟

وقبل أن يجيب الرائد/ مصطفى، أسرع عبد العظيم بالإجابة:

- خلاص يا برهان لو عايزين يجربوا حظهم، أهلاً وسهلاً، وياريت يبعتولنا الطيارات اللي عندهم كلها.

وعلق الرائد مصطفى:

- يا رجالة هما لسه حا يجربوا حظهم؟ ما جربوه، ووقع لهم أربعتاشر طيارة في أسبوع، وشوفوا بقى لما {اليهود} يخسروا أربعتاشر طيارة يبقى حالهم إزاي!

وكالعادة في كل لقاء كان شراب العدس هو الترفيه لرجال المجموعة وتحية للزائرين، وتشعب الحديث إلى السياسة، وأخبار المجتمع حتى صرف الرائد/ مصطفى الحاضرين لمباشرة تكليفاتهم.

في ليلة من ليالي نهايات شهر سبتمبر ذات الطقس الخريفي المنعش، وبعد صلاة المغرب التقت مجموعة عبد العظيم على مقهى في حي الأربعين، وشاركوا فرقة أولاد الأرض غناءها الشجي مع السمسمية والطبلة:

إحنا ولادك يـا مصر **وعنيكي السهرانين**

نصرك أصبح نشيدنـا **واللي يعادينا مين ؟!**

فات الكتير يـا بلدنا **مـا بقاش إلا القليل**

ثم صمت الجميع إجلالاً لصوت المقرئ في كل من الإذاعة والتليفزيون، وحوَّل صاحب المقهى

المحطات والقنوات، فإذا هي كلها لا تذيع سوى القرآن في قراءات متواصلة، ثم توقف البث القرآني وجاء صوت نائب الرئيس يعلن رحيل الزعيم والقائد ... سقط الفارس وسط المعركة ... علا الصراخ. بكى الجميع وانتحبوا، وساد الحزن والسواد، وكاد اليأس أن يخيم على الناس، لولا أصوات عاقلة أقنعت الجميع بأن الحكمة والمحبة معاً يقتضيان استكمال العمل الذي سقط من أجله الزعيم، واتفق الشعب والجيش على الاستمرار، ومواصلة النضال لتحقيق الهدف، وإزالة العدوان.

ومرت سنوات عجاف، قاتمة، يخيم عليها الحزن والألم والمعاناة، وبدأ البعض يرى أن الصبر لا حدود له وأن الألم قد أصبح مرادفاً للحياة ذاتها، إلى أن فوجئ الجميع على ضفة القناة بعاصفة الرعد من الطائرات المصرية التي عبرت إلى سماء سيناء ... وسمعوا الانفجارات المطربة، ثم انطلق ألفي مدفع يصبون الحمم على الأعداء، وازدحم سطح القناة بالقوارب التي تحمل الجنود وأقيمت

الكباري لعبور الأسلحة الثقيلة، وذاب الساتر الترابي، وانهار خط بارليف، وارتفعت رايات النصر في سماء سيناء.

ومضت الانتصارات مع موجات العبور، واحتفل الشعب حيث غسل النصر كل أثر للمعاناة وآمن بأن أرواح الشهداء لم تذهب سدى، وأن ذكريات الأرامل ومستقبل الأيتام هي في الطريق الصحيح ... حتى حدثت الثغرة بعد عشرة أيام وبدأ العدو محاولاته لاحتلال مدينة الإسماعيلية وفشله ثم اتجاهه إلى مدينة السويس.

وفي منتصف نوفمبر، وفي جلسة دافئة في بيت الحاج/ مدبولي في بني سويف كان يسري في أجازة لثمانية وأربعين ساعة، وكان والده وشقيقه حسنين قد وصلا قبله بيومين من السويس، وأشار الحاج/ مدبولي إلى ابنته خديجة لتغلق التليفزيون:

- عايزين نسمع القصص اللي ما اتقالتش في التليفزيون، إحنا تابعنا بطولات الجيش في العبور والعمليات الرائعة في سيناء، عايزين نسمع من عبد العظيم وحسنين بطولات الشعب في السويس ...

ورد عليه عبد العظيم:

- طيب مش الأول نتفق حانجوز الولاد اللي صبروا ست سنين مخطوبين إمتى يا حاج.
- والله معاك حق، وإحنا جاهزين، لا حاندور على شقة – وإحنا عندنا الدور اللي فوق كله فاضي – ولا حا نسأل حا نجيب الموبيليا منين، والورشة واقفة ومش لاقيين شغل بعد الناس كلها ما بطلوا جواز. إيدي على إيدك ومعانا يسري وحسنين والاتنين الصنايعيه إللي في الورشة، أقل من شهر نكون خلصنا الخشب، ونجوزهم قبل رأس السنة ..

ثم حول الحديث بطريقة مسرحية مفاجئة:

يا لّلا يا سيدي ... شنِّف وداناً بقصص البطولة، وأنا جاهز بلزوم القعدة، آدي الشيشة وأدي عدة الشاي عشان ما حدش يقوم، والعيلة كلها قاعدة ومفتحة ودانها ...

سحب عبد العظيم نفساً مشتاقاً من الشيشة، ونفث دخانه في الهواء واتجه بصره إلى الدخان وكأنما يستجمع من سحابته ذكريات السنين، ثم بدأ الحكاية:

- إحنا جالنا خبر يوم عشرين إن عدد كبير من الدبابات الإسرائيلية جت من اتجاه فايد وبيحاولوا يدخلوا السويس واتفاجئنا بضرب مدفعية وطيران زي المطر. كان قصدهم يأثروا على روحنا المعنوية، وكان معانا قوة من الفرقة ١٩ خارج السويس وداخلها .. كان معانا الشرطة والمحافظة والمنظمة، وناس عاديين من اللي لسة عايشين في المدينة. الموجة الأولانية من الدبابات قدرت تفلت من كمين حي الأربعين، ودخلت على منطقة البراجيلي، وأول ما ظهرت في شارع الجيش، اتعامل معاها الفدائيين، واتفاجئنا بأحمد أبو هاشم اللي كان بقاله يومين عمال يقول: "باقي من العمر ساعات يا أولاد"، بينط قدام الدبابات وبيرمي عليها قنابل، واتفاجئنا بالعساكر الصهاينة بينطو من المجنزرات، واستقبلهم أحمد برصاص الرشاش اللي في إيده ... ووقع منهم عدد كبير قبل ما تصيبه دفعة رصاص في صدره وجبهته، وكملنا التعامل معاهم وسحبنا جثمانه الطاهر واحتسبناه شهيد بطل ...

وإبراهيم سليمان كان بيساعد في نقل الجرحى وتكفين الشهدا في المستشفى العام، وفجأة، مال على ودن الحانوتي وقال له: "كلها يومين وأكون عندك ... بس خللي بالك مني" .. ليلة أربعة وعشرين أكتوبر في كمين عند سينما رويال، قعد مكانه لغاية ما سمع أدان الفجر، قام اتوضا وصلى وبعده قعد يقول بصوت مسموع: "يعني حاتعدي الحرب دي يا أولاد من غير ما نلقي الشهادة؟" .. والساعة عشرة صباحاً، نشِّن على دبابة بطلقة آر بي جي لكن ماصابتش الهدف ...

ووصلت الموجة الثانية من الدبابات، فقعد إبراهيم على قرافيصه، ونشن على الدبابة اللي ف أول الطابور فأصابتها طلقة الـ آر بي جي في مقتل ودمرتها وصرخ إبراهيم بفرحة: "ياسلام عليك يا أبو خليل ياجن" وهتفوا الرجالة:؛ "الله أكبر" واستمروا يتعاملوا مع الدبابات، وادَّمر بعضها، وهرب الباقي.

بالليل قدر عدد من دبابات الموجة الأولانية إنهم يوصلو قسم الأربعين ويحتلوه، واتسحَّب إبراهيم من شارع ورا القسم وهو شايل رشاشه، وقفز فوق السور العالي، وهو كان بطل جمباز – لكن قناص داخل القسم لمحه وأصابه برصاصة، وقعد جثمانه على السور لتاني يوم واللي شالوه عشان يدفنوه حلفوا إنه كان بيبتسم ... ولما شافه الحانوتي افتكر كلامه عن الشهادة، وبكى بحرقة عليه.

واتقدم أشرف عبد الدايم واقتحم القسم من قدام ووراه فايز أمين بيحمي ضهره، وقدروا يدخلو القسم ويفتحو الرشاشات على الصهاينة وقتلوا عدد منهم لكن في النهاية سقط أشرف على عتبة القسم، وفايز جنب الخندق جوه القسم.

واستمر القتال ... كلنا وقَّعنا من الصهانية أعداد كبيرة ومع آذان المغرب يوم ٢٨ رمضان انسحبت المدرعات الإسرائيلية وسابت وراها ستاشر دبابة مدمرة وست لواري محملة تموين.

ودا قليل من كتير .... ونكمل بقى كلامنا بخصوص جواز الولاد ...

ورد الحاج/ مدبولي ... والله ما كنا عايزينك تبطل حكايات عنك وعن زمايلك الأبطال، لكن كمان لازم نتفق على كل التفاصيل، قول لي عايز إيه غير العفش والسكن؟

- الولاد يتفقوا عايزين يعيشوا هنا ولا في السويس، زي ما يحبو، وكلها بلادنا وعزيزة علينا، بس أنا شايف – وياريت توافقني يا حاج – على إننا نكتب الكتاب هنا، وبعدين نسافر نعمل الفرح في السويس، وكل حبايبنا الأبطال

يحضروا ويفرحوا معانا، والزفة تعملها فرقة السمسمية والكابتن/ غزالي يلعلع، ومحمد حمام يغني في الفرح:

يا بيوت السويس يا بيوت مدينتي نستشهد تحتك وتعيشي انتي

يا بيوت السويس

****

المحتوى

القصة	الصفحة
مقدمة	٣
ساعة في سيناء	٥
قهوة علي الصعيدي	١٥
المساعيد	٢٥
ساعة الصفر	٤١
عائلة المصري	٤٧
اختراق السحاب	٦١

رقم الإيداع

١٠٤٢٩ /٢٠١٨

المؤلف فى سطور

- محمود محمد علي مبروك
- وشهرته: محمود مبروك
- من مواليد الغربية عام ١٩٤١
- حاصل على بكالريوس تجارة – دبلوم المعهد العالي للدراسات الإسلامية. قاتل مع القوات المسلحة في اليمن – حرب ١٩٦٧ – حرب الاستنزاف – انتصارات أكتوبر – شغل عدة وظائف انتهاءً بمدير عام في شركة النصر لصناعة السيارات.
- **عضو مجلس إدارة سابق بكل من:**
  - شركة النصر لصناعة السيارات.
  - صندوق التأمين الخاص بالشركة.
  - شركة المهندس الوطنية لصيانة السيارات "مهندسكار".
  - نائب رئيس مجلس إدارة نادى ١٥ مايو الرياضي والاجتماعي.
- **مارس الأعمال الصحفية التالية بعدة صحف:**
  - كاتب مقال – مستشار تحرير – مدير تحرير – الدسك المركزي – رئيس تحرير تنفيذي .
- **له العديد من الكتب السياسية والعسكرية والقصص القصيرة، منها:**
  - لقاءات مع جمال عبد الناصر.
  - يوميات ضابط في حرب اليمن.
  - السيد المحافظ "مجموعة قصص قصيرة"
  - حكاية رشاد " مجموعة قصص قصيرة"
  - نافذة على القمر "رواية"
  - عازف العود. "مجموعة قصص قصيرة"
  - أم حلاوتهم. "مجموعة قصص قصيرة" (تحت الطبع)
  - رؤي صدقتها الأيام "مجموعة مقالات سياسية مجمعة" (تحت الطبع)
- **حاصل على جائزة الشئون المعنوية للقوات المسلحة في مسابقة القصة القصيرة عن ثلاثة قصص التالية:**
  - ساعة في سيناء.
  - عائلة المصري.
  - اختراق السحاب.